شذرات الخيال

يونس الشرقي

اسم الكتاب: شذرات الخيال

التأليف: يونس الشرقي

موضوع الكتاب: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 118 صفحة

عدد الملازم: 7.5 ملازم

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 23002 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 581 - 0

دار البشير للثقافة والعلوم

1438 هـ

2017 م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714

شذرات الخيال

يونس الشرقي

دار البشير
للثقافة والعلوم

كلمة

حروف قد انتفضت من بين ثنايا القلم،

وانتثرت من ظلال الجدران،

وقصاصات الكهّان،

لتعانق النور،

وتنسج الواقع على عتبات الخيال.

إليكَ..

إلى الماشي بين دروب الضلال،

إلى التائه بين الأقوال والفِعال،

إلى شخص قد أنهكه التهارش،

وكثرة المكر والتحارش،

ونجيع الحروب،

ودبيب الأسى وصدى الكروب.

أثقله العيش ولهيب الفقر،

وتَلَمَّس العيون فما وجد إلا الغدر.

خذله بريق المستقبل..

فانكشحت عزيمته وكَلّ.

إلى كل من أراد أن يرى واقع الخيال،

وخيال الواقع.

جنون ما بعد منتصف الليل

بلحظة ما، حين يلامس عقربُ الساعة الكبير العقربَ الصغير ويشيران لرقم واحد، رقم لا يوجد بين أرقام الساعة.. رقم قد اختفى بينها، ووارب نوتاته خلف رتابة وقع تحرك عقربَيْه، رقم خارج مجموعة الإثني عشر رقمًا. لكن عندما يشير العقربان له يتوقف الزمن، وينبتُ جحيم أسود خلف سديم من الضباب الخانق.

كنت وسط غرفة مظلمة أجلس وحيدًا ساكنًا، لا يعكر صفو سمعي إلا تلاطم أنفاسي المتقطعة.. كنت أُقَلِّب عينيَّ يمنة ويسرة، أحاول أن أتحسس قبسًا من نور شارد، أو أسمع حسًّا آدميًّا يرخي تشنج أعصابي.. لكن السكون أبى إلا أن يضع لبناتِ صكِّ الصمت مع العتمة.. ذاك السكون الذي يسبق صرخة الهلع بأفلام الرعب الرديئة.. كنتُ أدير مقلتي في الظلام فما يرتسم بين ناظري إلا خطٌّ رفيع برّاق مع كل تحرك لبؤبؤي الكليل.. ربما ذاك الخط الدقيق هو الخيط الفاصل بين جنون الواقع وجنون الخيال.

بدأت أحسّ بشيء غريب، كأن شيئًا يخطفني ويضمني بين راحتيه، ويسافر بي بين دروب التيه، وأنا مُسمّر مُثبّت بمكاني.. أمّا رأسي، فقد

بدأت خلاياه تتمايل في تؤدة لترخي على ناظري مسحةً من الدوار، تلاعب بكياني كأنني أسبح وسط كيان شديد الميوعة.

لكن الموقف لم يُمَكِّنني من الإحساس بوقع ذلك على تمايل رأسي.

أيتمايل أم لا؟

لا أعرف!

لا أعلم شيئًا!

سوى ذاك الخاطر الغريب والمرعب الذي اجتاحَ كياني وزرع ألغامه التي تنتظر انفجارَ حبالي الصوتية.. كان خاطرًا حول احتمال ظهوره أمامي.

وفعلًا..

هناك – بعيدًا – قد لاح ظل وسط الظلام.

كيف رأيتُه؟

لا تسألني، فبصري الخائف استحال كالبوم المفترس يترقب فريسةً بليلٍ بهيم.

حاولت تتبع الظل.. لكن إحساسًا غريبًا مدّ أنامله بمفاصلي.

ثم بدأ يُحدث صريرًا يتناغم مع دبيب نمل لا يرى، بدأ في إنشاء معسكره فوق جسدي.. وأنزل قواتِه فجأة لتحدث زخمًا نفسيًّا أهان شجاعتي.

حاولت أن أحرّك يدي لأمسح جبهتي من ذاك العرق الذميم الذي أرخى أستاره على جبيني ليبلغ العنق ويغرقني ببحر أُجاج لُجِي. كان كل شيء من حولي يتآمر على شخصي.

بل جسدي قد عقد صكَّ التآمر هو الآخر؛ ليبدأ الفؤاد في الإذعان للاستعمار الذي استبد بجسدي الفاني.

حاولت أن أحمل راحتَيَّ لكن دون فائدة.. جسدي لا يطاوعني.. عصبونات فكري قد أصبحت قاصرة عن بث سيالاتها العصبية.. رفعت بصري الذي ما زال يجاري طلبي.

ثم وجدته أمامي..

كان واقفًا يرمقني بعينين يلفهما السواد.

خمري اللون..

بل كان نجيعًا قد كسا محياه ليتقاطر زخّات من لحيته الكثَّة.

حاولت الصراخ دون فائدة..

اللعنة، حتى جسدي قد انكشحت غريزته، وظل جامدًا..

ثم أحسست بريح عطن..

كانت زفراته تذرف ريحها الذي أزكم أنفي.. رائحة الثوم والبصل والكبريت.

لا أعلم كيف تجمعت بجوف واحد، فأصحاب روائح الكبريت يفرون من تمائم تكتب بالزعفران، وتعلق بجوار الثوم والبصل.

لكنها امتزجت بجوفه؛ لتكون سبب اختناقي!

ربما تخلص من تلك التميمة التي وضعتها بالباب كي لا يتمكن مني..

بل ربما التهمها كوجبة عَطِنة يتخللها الثوم والبصل المُعلقيْن بجانبها!

اقترب مني أكثر..

فأكثر..

ثم بدأت أشعر بعطن عرقه الذي سرَى بكل جسمه.. اختلط مع دمه القاتم ليتسلل متقاطرًا على وجهي.. لقد أضحى جسمه أمامي مباشرة ورأسه فوقي.. لقد كان يرميني بسهام بصره المفترسة..

كيف أرى كلَّ هذا بالظلام؟!

قلت لك بصري لم يصبح مثل بصر البشر..

بل حيوان يرى جلّاده ومقصلة جزِّ رقبته..

لكنه، قد أُوثِق بسلاسل خفية..

ثم يا صاح، قد بدأ لعبته الدنيئة..

بدأ يجثُم على صدري بجسمه.. بدأ يتسلق هضاب صدري الذي لم يعد يتنفس.. حاولت الشهيق.. الزفير.. لا هواء.. لم يكن هناك سوى العدم..

ثم اللا شيء.

خمسة آلاف ليرة

كانت الشابة التي أمامه تدفع امرأةً عجوزًا حتى كادت أن تسقط؛ لولا أن أمسكها أحدُ الجالسين على إحدى طاولات الحانة.. اعتدلت المرأة التي قد نسج الزمن أخاديدَه بوجهها وخفتت إشراقة أنوثته منذ زمن.. وجَّهت نظرة إلى الشابة وقد تمخضت عبراتها معلنةً عن أسى عميق ممتزج بهم وحزن، ثم انسحبت بخطًى متثاقلة، وهي تقول:

لا حول ولا قوة إلا بالله.. الله يهديك يا بنتي.

جلستِ الشابة التي كانت تلبس فستانًا قصيرًا، وقد نُكش شعرها الذي حزمته بطرحةٍ صغيرة كالغجريات. أخرجت سيجارة منكسرة من حقيبتها المعلقة على كتفها الأيمن، وطلبت من النادل أن يُشعلها لها.. ثم نفثت زفيرًا طويلًا أخفى دخانه تقاسيمَ وجهها.

نهضتُ من طاولتي وتوجهت إلى محل جلوسها.. زحزحتُ الكرسي المقابل لها، ورمقتها بابتسامة مشيرًا لها بطلب الجلوس.. نظرتْ إليَّ ماسحةً تفاصيل جسمي بعينيها النائمتيْن، ثم قالت:

Centomila Lira، il mio amore[1].

ابتسمتُ، وأجبتها بلهجتي المغربية:

أنا مغربي مثلك.. ولا أريد جسدك المتهالك.

قضَّبت حاجبيها، لكنني التفتّ إلى النادل قائلًا:

tre bicchiere di whisky[2].

أعدت النظر إليها:

نبيل الصويري، روائي وكاتب مغربي.. من مدينة الجديدة.

أطلقتْ ابتسامة ساخرة، وقالت بلسان متثاقل:

عَنْداكْ تْسْحاب غا تاكُل لِيا مُخِّي[3].

لا.. لا تخافي.. كنت جالسًا وحدي، وعندما سمعت لهجتك المغربية مع تلك العجوز التي كنت تحاورين، آثرتُ الجلوس معك؛ كي نطوي وقتَ هاته الليلة الحالكة.

ناولتها سيجارة رفيعة من علبة سجائري، وأشعلتها لها.. نفثت بعض الزفرات، ثم قالت لي:

---

(1) مائة ألف ليرة حبيبي

(2) ثلاثة كؤوس من الويسكي

(3) إياك أن تظن أنك ستخدعني بكلماتك هاته!

قل لي.. لماذا طلبت ثلاثة كؤوس؟

دائمًا أطلب كأسين، واحدٌ لي وواحد من أجل روح زوجتي التي توفيت قبل سنتين.

أرسلتْ ضحكة ضجَّت بها أركان الحانة الإيطالية، ثم تنهدت بعمق، وقالت:

قليلٌ هم الأوفياء أمثالك.

رشفت من قاتلتها، وأضافت:

كانت تلك أمي.. لقد جاءت من المغرب لملاقاتي.. لكن لتذهب إلى الجحيم.. لن أرجع معها.. ثم هي لا تزال بالأربعين.

لم أعلق؛ فقد أحسست أن وراء الكلمات قصةً طويلة مؤلمة، ولا تحتاج هاته الفتاة مُحفّزًا لسردها.. أخذتِ الكأس وقذفتْ برشفة نحو حلقها.. ثم أمسكت السيجارة بين سبابتها والإبهام، ووضعتها على شفتيها المتشققتيْن كأنها تقبّلها في انتشاء، بعد بث نجواها للتبغ المُشتعل، قالت:

اسمي جميلة.. وليس لي حظٌّ منه، فما رأيت الجمال بحياتي كلها.

طرقت بأعلى السيجارة حافة الطفاية التي تتوسط الطاولة، ثم أعادت مصَّها بقوة، كأنها تريد أن ترشف إكسيرًا حيويًّا.

إنه نوع سجائر جيد.. له نكهة لم أتذوقها من قبل.. سأخبرك بقصتي، فاسمع!

ثم حدثتني عن قصتها العجيبة التي لا تقبل التصديق.. قالت لي:

تزوجتْ أمي وهي ابنة ست عشرة سنة، كان زوجها رجلًا يفوقها بعشرين سنة.. لم يُرد زوجة بقدر ما أراد خادمة تكنس وتطبخ وتقوم بكل شيء مهين من أجل والدته.. حتى أن أول ما قالت لها حماتها: (خُذي وعاء الماء القاطع (الكلور) واغسلي المراحيض). لم تُردْ أن تجيب؛ فرضخت على مضض.. عاشت معه أسوأ أيام عمرها، لكنني أعتبرها الأحسن لاعتبارات سأخبرك بها.. كان يكيل لها أثقلَ اللكمات وأشدَّ الضربات، ثم يدع الأم تغرف من مَعِين سبابها لترسل عليها شواظَ المهانة ونار الحقد والنذالة. وما استفاقت من غيبوبتها حتى وجدت نفسها مسئولة عن طفليْن.. ولد بكر واسمه عبد الغفور، وبنت صغرى هي الماثلة أمامك.

لكنَّ قوسَ صبرها لم يعد يتحسس منزعَه، فما لبث أن انطلق مستصرخًا بإحدى الجمعيات النسائية، وانتهى بطلاقها واستئثارها بطفلين لم يكن طليقها يُرِد - أصلًا - الظفر بهما.. وهكذا انقطع حبلُ الوصل مع زوجها وعائلته، لترجع لبيت أبويها بطفلين قد تيتَّما باكرًا رغم وقع نعل الأب على البسيطة. وهكذا لم أرَ أو أعرف أبي إلى الآن،

وما أملكه لا يتعدى اسمًا عائليًّا يُتوِّج بطاقة التعريف الوطنية.. لكني نسيته عندما عبرت البحر الأبيض المتوسط، إذ لم أعد محتاجة له بعدما وطئتُ أرضَ أوروبا وعاقرتُ عَسَلها وخمرها.

كانت حالة جدَّيَّ يُرثى لها، فسكنهما لا يتعدى دارًا صفيحية بتخوم مدينة الدار البيضاء بحي التْقَلْيَة المعروف. أسرة فقيرة تعيش على صفيح الفقر الحارق، فجدي كان يعمل بـ " التْبوعيره".. يتجول طول اليوم على صناديق الأزبال ومخلفات المصانع فيبحث وسطها عن شيء يُمكن بيعه أو إعادة استعماله، أمّا جدتي فقد كانت تصنع البغرير، وتبيعه أمام أحد المساجد وسط المدينة.. حاولت أمي أن تجد مدخلَ رزق، فقررت أن تعين جدتي ببيع البغرير، أو أن تبيع بعض حلويات صابلي[1] بجانبها، ثم تركتها بحجة الدخل الصافي الذي لا يكفي طفلين لم يتجاوز أكبرُهما الخامسة. كانت تخرج من البيت صباحًا، تلف على إشارات المرور تبيع المناديل الورقية تارة، والعلكة والحلوى تارة أخرى، لكنها ملَّت وأُنهكت خاصة أنها لم تسطع ربح إلا دراهم قليلة مع انتهاء كل يوم.. إلى أن خالجت كينونَتَها تلك الخاطرة الخبيثة والفكرة المقيتة، فقد تذكرت أنها مُطلقَّة ولا بكارة لها!

لقد اختفى وازعها الأخلاقي والديني، اجتث الزمن القاسي ثمرته

(1) حلويات تصنع بالأساس من الدقيق والبيض والسكر.

من قلبها، فطرحته دون بال.. فاجتث معه كل شيء.. كل شيء جميل قد اختفى، وما ثبت واستقر إلا الأسى والهلاك.

بدأ الرعب يبعث قبضته بفؤادها، فأرسل رعشة وانقباضًا بأعصابها مع أول فساد تضع به قدميها؛ لتجد نفسها بعد حين قد غاصت بأوحال الرذيلة ومستنقع البغاء. لكنها ظلت تشعر بشيء يزعزع ضميرها، ربما هي نظرة الأبوين التي ما زادت إلا اتهامًا صامتًا لها، خاصة مع عملها الذي بدأ ينتعش ليلًا، والمال الذي ما فتئ يربو بجيبها.. ثم قررت أن تترك البيضاء، كان ذلك اقتراح إحدى صويحباتها الجدد بِوَكْر البَغاء، فأخبرت أبويها أنها وجدت عملًا بمراكش بإحدى الفنادق الكبرى.. ستعمل به كاختصاصية حلويات.. تَنَفَّس أبويها الصعداء فقد علمَا أنها كانت مُتقنة لصناعة الحلوى على مختلف أشكالها، لكنهما ما فطِنَا أنها ذاهبة هناك لممارسة البغاء مع كامل حريتها.. ثم سافرت إلى مراكش بعدما قامت بعملية زرع غشاء بكارة جديد.. فقد أخبرتها صديقتها أن الأجانب يُغْدِقون الأموال على من كانت بكرًا، خاصة أن أمي مازالت صغيرة ولم تتجاوز الثانية والعشرين آنذاك.

كنا نتسلقُ بدوحة السنين، ونكبر ونشبُّ بين ظهراني الجَدَّيْن، كنت وأخي نناديهما ببابا الحنين وماما الحنينة، أما أمي فقد كانت تزورنا بين الفينة والأخرى لتتسع المدة شيئًا فشيئًا، فما عدنا نراها إلا

لمامًا.. كانت ترسل نقودًا كثيرة لبابا الحنيّن، فلم نَحْتَجْ شيئًا إلا وكان أمامنا، وما فتحنا أفواهنا حتى زُجّت مختلفُ صنوف الأكل بها.. حتى المسكن فقد أضحينا نقاسم البورجوازيِّين شققَهم بأفخر إقامات شارع الزرقطوني.. كانت أمي تزورنا بسيارتها المرسيدس الفاخرة، وقد اشترت لعبد الغفور دراجةً نارية عند ولوجه للمدرسة الثانوية.

شَبَبْت ووصلت للمراهقة، كان أخي قد وصل للسنة الثالثة بكالوريا، أما أنا فقد جاورته القسم بالصف الثاني بكالوريا، فرسوبه المتواصل جعلني أقارب عتبات فصله.. كانت ماما الحنينة قد تُوفيت منذ سنة، جعلني ذلك أدخل في دوامة حزن وأسى، لم يخرجني منها إلا تعرفي على سمير المريالي، أحد كبار المسئولين بالجماعة الحضرية هناك.. كان متزوجًا لكنه كان حنونًا لطيفَ المعشر.. قابلته بإحدى مقاهي الشيشة الفاخرة التي كنت أرتادها مع بعض زميلاتي، رآني فأُعْجِب بي، تقدم نحوي، وأخبرني مبتسمًا أنني نِلتُ اهتمامه، ثم أعطاني بطاقته المهنية وخرج من المقهى.. تحسست اسمه ورقمه.. بعد قليل، أرسلتُ له رسالة هاتفية بذريعة تأكيدي للرقم الذي على البطاقة، فأجابني بأيقونة مبتسمة وجملة: أنتظر اتصالك.

اتصلت به مساءً، وأضحينا نتقابل مرَّة تلو المرة بمقهى فاخرة على ساحل طاماريس، بعيدًا عن أعين المتربصين به والفضوليين..

أحسست معه بطعم الحياة، لم أخبره بسني الحقيقي فقد خفت أن يتركني لأنني قاصر، فاخترت سن التاسعة عشر خاصة أن جسمي قد نَمَت تضاريسه ومفاتنه مبكرًا. أحببته وهِمت في عشقه لحنانه ولطفه، لقد كان ممّن نقول فيهم "حطُّو على الجرح يْبْرا"[1].. ربما كان حبًّا فقدته منذ صغري، بل ربما كنت أحس بعطفه الأبوي اتجاهي، خاصة أنه أحبني حبًّا عذريًّا، فلم يُشر لي أبدًا أن غريزته جائعة لكشف ستري، ولا رأيت به وحشًا قد يُخرج أنيابه كي يغرسها بعذريتي.

دامت علاقتنا ثلاث سنين، قد تضاربت بها الأحداث بحياتي الشخصية فكان الحديث معه بلسمًا لقلبي العليل، وترياقًا يمسح به على شعري كلما تناثرت قطع أحجية فؤادي ليُضمد جراحه، كل جراحه.. بل كان بحرًا أرى به فارس أحلامي فتغسل أمواجه درنَ همي، وما يتخلل حياتي من أسى سببه الأول أسرتي، بل أب تركني منذ صغري، وأم اختارت البغاء على تربية ابنيها.. كنا جميعًا نعلم أنها تمتهنُ الزنا وتحترف العُهر، وكانت تعلم أننا نعلم، لكنها توارب ذاك بضحكات مصطنعة، ووقت لقاء قصير لا يتعدى بضع ساعات، ثم تعود لمراكش.. كما أننا أدركنا أن ماما الحنيّنة تَرَجَّتها أن تترك الرذيلة قبل وفاتها، لكن أمي راوغت وأعطت وعدًا سقيمًا.. نقضته فور وفاة الجدة.

---

(1) إذا وضعته على الجرح سيتعالج.

أثناء خروجي مع سمير، وبعامي الثاني معه.. كان أخي قد نزع شهادة البكالوريا انتزاعًا من عرين أسد الدراسة، لم نكن نتوقع أن ينجح ويجتاز العائق الصعب.. كانت أمي – آنذاك – قد قررت العودة للبيضاء والعيش معنا، لقد ابتاعت فيلّلا صغيرة بلارميطاج وفتحت سوقًا ممتازة، ربما كانت لتبييض أموالها، بل كانت بالفعل.. كُنَّا على ضلال في ظنِّنا بامتهانها البغاء فقط، فقد كانت يداها بدأتا تختلط مع كبار مروجي الحشيش، فكانت تبيعه لزبائنها وأصدقائها بالحانة والعلب الليلية، التي أضحت وجهًا مألوفًا بها.. كانت تسمَّى فيما علمتُ من أحدهم بالبرجوازية الفاتنة، فقد كانت تضع أغلى المساحيق والعطور، ولا تلبس إلا الملابس المُوَقَّعة ذات الماركات العالمية.

رجعتْ أمي للبيضاء، لكنها اصطدمت مع أخي فور اجتماعهما تحت سقف واحد. لقد أخبرها أنه سيُهاجر لأوروبا قصد العمل.. رفضتْ، وأرغدتْ، وأزبدتْ، فقد كانت تلتمس أن يكمل دراسته هنا، وأن يتقلد منصبًا مهمًّا، خاصة أن شبكة معارفها قد توسعت وشملت كبار المسئولين ومشاهير الفن والسياسة.. هجر الحديث مع أمه، فهو لم يرها كأُمٍّ أبدًا.. حَسِبت أنه أعرض عن فكرته، خاصة أنه سُجّل بإحدى الجامعات الخاصة عالية الكعب ومشهورة الاسم.. كانت تكاليفها السنوية تفوق العشرة ملايين سنتيم سنويًّا.

لم تكن أمي تعرف القراءة ولا الكتابة، أمِّيَّة لكن الأدباء والشعراء وأصحاب المصانع والأساتذة وغيرهم كانوا يتعلمون ألف باء الحياة عندها!.. لذلك؛ كانت تُكلف أخي بعض الأحيان باستعمال بطاقتها البنكية وإخراج بضع آلاف الدراهم بين الفينة والأخرى، كما أنه كان يسحب لها ورقة المعاملات كلَّ مرَّة، ويشير لها إلى رقم وتاريخ وقيمة كل سحب، ربما خاف أن تتهمه بالسطو على بعض فتاتِ الدنيا مما كسبته من التجارة بأردافها.. لكنها كانت تريد أن تزرع به الثقة المهجورة بينهما.

وبيوم صيفي، جاءها الخبر الفاجعة.. لقد هاجر أخي إلى إيطاليا.. لقد اختار طريقًا نصف شرعي، فمحطات كتونس وتركية اجتازها بجواز سفره فقط، ثم اختار المواصلات البرية مرورًا ببعض الدول الأوروبية مثل هولندا وفرنسا وصولًا إلى إيطاليا.. كنتُ أنا من أخبرتها برحيله، وطَمْأَنْتُها أنه وصل بخير إلى أراضي روما، وهو الآن يبحث عن عمل، ربما سيُساعده أحد أصدقائه القدامى ممن سبقوه هناك قبل أربع سنوات.. ثم أردتُ أن ألقي بعض نار الغبن بقلبها، فسألتها مستهزئة عن كيفية تدبيره مبلغ رحيله وسفره.. خاصة أنه احتاج لعشرة ملايين سنتيم؛ كي يستقل طريقًا مضمونة إلى ما وراء البحر.. تركتها تضرب أخماسًا في أسداس قبل أن أخبرها أن البطاقة البنكية التي بحوزتها لم

تكن إلا واحدة قد وجدها صدفة مرمية.. ربما هي منتهية الصلاحية أصلًا.. فوَضَعَها مكان الأصلية، وأخرج المبلغ الذي أراد على دُفعَات لمدة ثلاثة أشهر كي لا يُداخل موظفي البنك شكٌّ!

ثم تركتها.. صدقًا، لقد كنت فرحة مسرورة بعدما رأيت ذاك الحزن والأسى الممزوج بالغبن الظاهر على قسمات وجهها بعدما عكَّرت صفوَ مساحيقها عبراتُها المتساقطة كمطر شهر ديسمبر الغزير.

بعد عام من الواقعة، وبِوَقتٍ قياسي عَلمتِ الأم أن عبد الغفور قد عاد للمغرب، وهو الآن عند أناس يعرفهم بقرية الجماعة.. حَملت رجليها فوق عنقها وأسرعت بسيارتها نحو المكان الذي حدَّدوه لها "الجْواد".. لقد كنتُ أنا من اتصلت بها مُغيرةً صوتي ومخبرةً إياها بالخبر الذي عَصَف بتفكيرها.

وصلت للمكان المعلوم، لكنها لم تستطع ولوج الزنقة الضيقة؛ نظرًا لخيمة (خْزانه) ضخمة منصوبة وسطها.. ترجّلتْ عن سيارتها التي ركنتها غير بعيد، لتقرع آذانها أهازيجُ الأغاني الشعبية المُنبعثة من الخيمة البيضاء.. حادت العُرس الذي بدأ في نشر أغانيه الصاخبة، ورمت ببصرها نحو بابه الذي مُلِئ بأناس لا تعرفهم، لكنها استطاعت أن تميّز شخصًا ما.. لاحت لي من بعيد وهي تشير لي بيدها، غير أني لم أكن أسمع ما تقول، ربما كانت تُناديني باسمي. خرجت وبدون

مقدمات أمسكتها من ذراعها وأدخلتها، لتقف متسمرة أمام المشهد الذي أمامها.. ابنها عبد الغفور كان يلبس البياض ويجلس بكرسي ضخم بجانب فتاة شابة قد أخفت ملامحها خلف المساحيق الصارخة التي رُسمت فوق قسماتها.. كان عرس زواج ابنها.. لم يخبرها بشيء.. أما هو فقد رآها، لكنه لم يكترث.

لم تجتزْ حاجز الدقيقة الواحدة وهي واقفة كجذع شجرة فارغ تعوي ريحُ الغضب بداخله، حتى عرجت وخرجت من الخيمة وهي تداري دموعها بكمِّ قميصها المتراخي. أدارت مفاتيح سيارتها، وغادرت المكان.

لم يحرك أخي ساكنًا.. فقد كان يكرهها كما قال لي وأنا أحاوره حول موضوع عرسه.. الصدق أنني لا أستسيغها كذلك، لكنها أمي التي أنجبتني قبل كل شيء.. ربما كانت أنوثتي هي من ترمي بقلبي بعضًا من العطف على أمٍّ مثلها، قالت لي يومًا إنها كانت تنفق أكثر من ألف درهم علينا كلَّ يوم.. قلت لها نحن نحتاج حنان الأم وليس أوراقها النقدية.. أخرجت مقلتاها دمعةً يتيمة آنذاك، قضَّبت حاجبيها، ثم تركتني وذهبت.

كنت أتواصل مع أخي الذي انتفش ريش غناه، ورَبَت ثروته بسرعة.. فهِمتُ أنه يشتغل بتجارة المخدرات البيضاء. فقد حكى لي يومًا أن صديقه هناك قد فاق سهم غناه المليار سنتيم بعد عامين فقط،

إذ أنه اشتغل بالبذرة البيضاء، كان يقولها وقد شعَّ من عينيه بريق وأمل.. علمت – آنذاك – أنه سيسير على غَرْز صديقه.. لم يهمّني الأمر، بقدر ما همّتني صحته وروحه التي مازالت تسكن جسمه، ولم تغادره بعد.

ووسط هذا التخبط سقطتُ بالمحظور.. كنت أجلس مع سمير بإحدى مقاهي الجديدة، فقد استغل إجازته وانشغال زوجته عنه بوفاة أبيها؛ واقترح أن نذهب إلى الجديدة ليومين، وافقتُه على الفور؛ فقد كنت أطمح للابتعاد عن كهرباء الأجواء التي أضحت تنشر إلكتروناتها بين تخوم منزلنا.. اشترط شرطًا كان حريًّا بي أنا أن أُلقِيَه، قال لي إنه سيحجز غرفتيْن منفصلتيْن بالفندق؛ كي لا نقع في المحظور.

كان يومًا رائعًا كعادة سمير الذي تطيبُ معه الحياة، وتنشر أريجها وتبث فراشاتها الملونة بين ثنايا روحك، كنت أحسب نفسي بفيلم هندي لا يشوبه الانتقام.. حبٌّ فقط!.. زرنا – آنذاك – القصبة البرتغالية وسيدي بوزيد، وتغدينا بوجبة السمك، وارتشفنا عصير البرتقال بمقاهي الساحل الأطلسي، ثم قضينا أمسيتنا بكازينوهات الجديدة الفارهة.. وما انتهينا إلا وقد قربت الساعة الثانية ليلًا. كان سمير يتصل بين الفينة والأخرى بزوجته التي كانت تعتقد أنه في زيارة عزاء لأحد أصدقائه بأزمور.

ولجْنَا الفندق، واتجه كل واحد منّا لغرفته.. كنت بذاك الزمن قد جاورت التاسعة عشر بعمري فعلًا.. وقد صارحته عن عمري الحقيقي.. لم يهتم.. غير أنه قال في لطف إنه يحبني أنا كما أنا، ويهيم بي، وذلك كافٍ كي يواصل الطريق معي. أقفلت الباب خلفي ثم اتجهت للحمام؛ كي أنفض عني غبار السفر ومشاوير التجول، وبعد خمسة عشر دقيقة كنت على سريري وأنا ملفوفة بفوطة وردية لا تستر من جسمي إلا عورته المُغَلَّظة. بعد بضع ثوانٍ، بدأت أتحسس شيئًا غريبًا بقلبي، كنت أريد "سمير" بجانبي، وأتمنى أن يضمني.. لم أفكر أبدًا حتى وجدت نفسي أطلب منه المجيء لغرفتي، فلدي أمر مهم يجبُ أن أخبره به.. تردد أول الأمر، لكنه استجاب بعد إلحاحي. ولم أحتجْ وقتًا طويلًا حتى ودَّعتُ عذريتي.

كان الصباح الموالي جميلًا مشرقًا.. لم نتحدث بالأمر، وبما وقع.. تعجبتُ من نفسي التي استطاعت رمي ليلة وداع وسْم "البكر" دون اكتراث.. بل إنني لم أتحدث مع أي شخص حول ما جَنَت يداي.. حتى سمير لم أحدثه لاحقًا حول ما فعلنا بتلك الليلة.. لكنني شعرت فيما بعد أنه بدأ يختار الابتعاد عني، ويباعد بين مواعيد لقائنا.. لم أعبأ، فربما كان لقاؤنا الجسدي حدًّا فاصلًا للقائنا الروحي.. لكنني بدأت أحس باضطرابات هضمية ودوار متواصل.. لقد حبلتُ منه.. داريت

حملي وابتعدت من أمي اتجاه منزل خالتي متعللة أنني أريد تبديل جوِّ المنزل الذي أضحى كئيبًا مع ذهاب أخي.. رجوتُ خالتي، التي ما وافقت أمي الرأي أبدًا قبل هذا، بل كان الهُجران والنُّكران هو عنوان الوصل بينهما، أن تواري فضيحتي.. حدثتها أني أريد إجهاضه وانتزاع الحياة من خطيئتي.. فرفَضَتْ؛ لأنصاع لها بعد ذلك تحت تهديداتها بطردي.

ما علمتْ أمي ما ادْلَهَمَّ بي حتى لفظتُ الخطيئة من رحمي، وتشكلتْ في لحم ودم أمامي.. أخبَرَتْها خالتي فالأمر لا يحتمل الهجر والستر كما قالت.. لم تُعقِّب أمي على فعلتي، غير أنها سألت عن والد الطفل.. كان ذكرًا وسَمَّيته نبيل، عسى أن يجد النبلُ طريقًا لقلبه.. أخبرتها دون تردد أنه سمير المريالي.

نظرتْ خالتي لزوجها الذي تمتم أنه يعرفه، فهو أحد مرؤوسيه، وسيتولى هو الأمر.

بعد شهر، رفعَتْ أمي قضية ضده تتهمه فيها باغتصابي.. لكن زوج خالتي تدخل مرة أخرى فطُويت القضية.. بعد ذلك علمتُ أنه قد أخذ مبلغًا ماليًّا مهمًّا من سمير، كما أنه ترقَّى بمنصبه الإداري.. لقيت سمير بعد الولادة بمدة، أخبرته أنني لا ألومه؛ فأنا من دفعته إلى معاشرتي، كما أنني لست نادمة على فعلي ذاك.. غير أني طلبت منه أن يعترف

بطفله نبيل وأن يُخرج له الشهادة المدنية.. وافق.. لكنه سرعان ما اختفى من المدينة ككل.. لم أَلُمْه، فذاك ما كنت سأفعل لو كنتُ مكانه.

بعد شهرين أو ثلاثة على انقطاع حبل مشيمتي عن نبيل، جاءت زوجة أخي للمغرب، زرتها عند بيت أهلها فأخبرتني أن أخي بالسجن، لقد أمسكته الشرطة الإيطالية إثر بلاغ من أحد الخليجيِّين الذي اتهمه بالنصب عليه.. سألْتُها عن ماهية جريمة النصب غير أنها أنكرت إن كانت تعرف شيئًا.. لكن الآن أعرف سببَ سجنه، فقد اتفق مع خليجيِّين أنه سينظم لهم حفلة مجون مع قاصرات بإحدى المنازل البعيدة عن مدينة ميلانو، غير أنه اختفى بعد جمعه للأموال وأخذه للعَرَابين الكبيرة القيمة.. أخبرتُ أمي أن ابنها بالسجن.. فوَلْوَلَت وَلِي وَلِي يا ويلَ لي.. واتصلت بأحد معارفها من المسئولين الكبار بالدولة؛ ليخرج أخي بعد شهر من معتقله، ويُرَحَّل إلى المغرب.. لقد قاد ذاك المسئول الهيئة الدبلوماسية المغربية أن تتدخل بالسفارة هناك.

رجع أخي، لكنه لم يجئ إلى بيتنا، فقد نزل عند أصهاره.. ترجَّته أمي، ولم تجد بدًّا من وعده ببناء نادٍ رياضي ضخم باسمه.. وسيكون له.. فوافق، وجاء بزوجته للسكن بمنزلنا.

أما أنا، فتلك قصة أخرى.. فبيوم من الأيام استفاقت أمي على اختفائي بالمنزل.. تركتُ لها ولدي نبيل ثم هاجرت إلى هنا.. وقد

تدَّبرتُ مبلغ السفر وما احتجت من لباس ومأكل من أخي، الذي وافقني على الفور، فكل ما سَيُؤَدِّي إلى إيلام أمي فهو معه ويُشجعه.. وها أنا هنا الآن بإيطاليا بلد الأوبرا والنبيذ والمعكرونة.

وجَدَتْني أمي أهيمُ على وجهي بأزقة روما قبل أسبوع.. لا أعرف كيف؟.. لكن معارفها كُثر، فالعالم كما أدركتُ غارق في الرذيلة، بل ويُجِلُّها!

إنها تزورني كلَّ ليلة بهذه الحانة، فهي تعرف أنني أختفي بالنهار ولا أنشط إلا بالليل، كخفاش ظلام يقتات على العُهر.

... سكتَتْ جميلة، وقد عاقرت عينيها دمعةٌ استحيتْ من الخروج.

سألتها:

أين أخوك عبد الغفور الآن؟

قالت – وهي تضحك:

لقد قتَلَتْه المافيا.. لقد انتقمت من دخوله للسجن.. ومن مكوثه بالمغرب.. قَتلته بعدما كان يترجَّل من سيارته الهَمْر أمام ناديه الرياضي.

دفعتْ آخر رشفة من كأس الويسكي الذي أخذتُه سابقًا نخبًا لروح زوجتي، ثم قالت:

لك خصم خاص.. خمسة آلاف ليرة فقط.

كـوفـيـة

يدخن جانبي بشراهة.. تتابعت السجائر بفمه، كآلة عصير قصب السكر سرعان ما تختفي معالم القصبة، وتنثني بين دفتي العصر الأسطوانيَّتَيْن!.. كانت صائدة الأرواح تشتعل ويشتعل معها لهيبُ الأسى والقرح.. كان ذاك باديًا مشاهَدًا على محياه.. فقد مصمص شفتيه كلُّ من مرَّ بجانبه راثيًا حال وجهه الذي أصابه الصدأ.. نعم لا تَتَفَذْلَك ولا تَتَفَيْقه.. فأمَارات الولهِ باديةٌ على محياه، وجفونه المتراخية الملونة بالسواد، دالةٌ على سهره المتواصل؛ كي يناجي نجوم السماء ويبثُّ لها نجواه..

نعم..

الآن فهمتَ..

لقد كان عاشقًا..

لكنه فقد محبوبَتَه.

بدأ كل شيء منذ أربع سنوات، وبالساحة الكبرى بالجامعة.. كان هناك يقف دائمًا.. طالما ترك درسًا مهمًّا أو محاضرة ينبني عليها مصيره ذاك العام الدراسي؛ كي يتحسس كل تجمع وتجمهر.. فما إن يسمع

هتافاتٍ هنا وهناك، أو تداعب عصبوناته السمعية نشيدًا ثوريًّا، حتى تجده يُرتب كوفيته الفلسطينية، ويصففها فوق طيَّة قميصه الممزقة.

أَلِسَتْر تقاسيم السنين البالية التي أرخَتْ نحتها بذاك الطرف البالي؟

أم الصيحة اليسارية التي وجد نفسه مضطرًّا أن يعيش دواليب حَلَقيَّاتِها؟

أم لعقيدة استقرت بكيانه وانعكست على كلامه وهندامه، بل وعلى أحلامه؟

لا يا صاح.. كفَّ هرطقتك وتخميناتِك الرديئة!.. بل تمعَّن يا صاح في أمكنة تواجده، والمساحات التي يشغلها عند صيحاته وهتافاته.. تمعَّن في نظراته وسهامه التي تخرج من قوس العين..

ألم تستبِنْ؟!

الآن.. نعم، فقد وَجَدت الجواب، ونَسَجت الصواب..

كل هذا.. كل هذا كان لأجلها.. لأنه أحبها، وسبح في بحور العشق، فأمسك دفة سفينة قلبه، وأضحى يناطح أمواج الفؤاد المتعالية.. فما عاد يرى ولا يسمع إلاها.

كانت نضرة ترنو تقاسيم جسمها إلى البدانة.. بيضاء لكنَّ بقعًا حمراءَ قد سرت أناملها على وجنتيها الورديتين.. كانت تضع طرحة مُنمَّقة، لكنها

قد أديرت بشكل عشوائي حول الرأس.. كانت أول محجبة بالتنظيم آنذاك، فَطَرْحَتها لم تمنعها من معانقة الفكر اليساري الاشتراكي.

علم فيما بعد.. أنها وحيدة عائلة يسارية عريقة، كان أبوها أستاذًا باحثًا بالفلسفة الإشراقية، كما كان يساريًّا متطرفًا، عانقَ الراديكالية رِدحًا من الزمن، فزجَّت به أفكاره السجنَ مراتٍ عديدة، لكنه عُرف بصرامته وصلابته، فاعتلى أعلى مراتب الحزب الشيوعي المحظور، ثم أضحى واحدًا من منظِّري الفكر الماركسي، بل وألَّف فيه الكتب. كانت ثلاثة، تُعتبر من بين التأليفات المُعتمدة بشبيبة التيار اليساري.. لكنه وبعد ثلاثين سنة من نضال يساري ضد السلطة، اختار التقاعد بأحد أحزاب اليسار المعتدل، بل أصبح من المنادين إلى التحالف مع الحزب الإسلامي الظلامي، كما كان ينعته سابقًا، قصد تشكيل حكومته، والنَّهْل من معين وزاراته ورجال سلطته.

كان أبوها بولحلول عبد الله، من الرجال الذين يوصفون بأن اسمه يُعذبه.. عبد الله.. ذاك الاسم الذي لم يختره، فقهره مدة طويلة، عندما كان متشبعًا بالفكر الشيوعي الإلحادي، فما فتئ الاسم يذكِّره بذاك المجتمع المُتدين بطبعه، والذي يأبى أن ينصاع لفكر اليسار وتحرير العقل من قيود الرجعية كما كان يتصور.. خاصة أن العامة تهاجمهم كلما علموا أنهم ملحدون لا يؤمنون بإله، ولا يحملون عقيدة غيبية.

لكنهم وجدوا قاعدتهم وسط المثقفين، خاصة المحامين والأساتذة والطلبة الجامعيِّين، فأطَّروا مجموعة من الجماعات والتكتلات عساهم يقاومون المد الإسلامي الذي بدأت ثمرته في إخراج شوكتها، خاصة بالجامعات المغربية.. لكن اليسار ما فتئ أن انقسم على نفسه، فاختار البعضُ الذوبانَ وسط اللعبة السياسية، والآخرون اختاروا المقاومة والممانعة وظلوا أوفياء لنهج التيار الأول.

لقد تعرض بعد ذلك لمحاولتي اغتيال، أولاهما من العدو الإسلامي اللدود، فنجا من رصاصة استقرت بكتفه الأيمن. والأخرى كانت من أصدقاء الأمس، فبعد تأليفه لكتاب يطرح رؤية جديدة في فهم أقوال عرابي الشيوعية، وخَطّهِ لمنحى جديد لليسار المغربي والعربي، وهو الطريق الذي يُنتج تيارًا يساريًّا إصلاحيًّا (كما سماه) يهدف للمشاركة باللعبة السياسية ويأخذ بالاعتبارات الملكية، جاءته رصاصة أخرى، لكنها استقرت برأسه، فلم تُنتج منيَّة بل أنتجت شللًا خفيفًا بعينه اليسرى، مما أحالها لعورٍ تام، وشللًا نصفيًّا بشفتيْه.

صَبْرا.. كان ذاك اسم ابنته التي رُزق بها على كبر.

كانت ظاهرة بائنة وسط الحشد.. تشع نضارة وبهاء وسط أي جمع..

لكن لا تأخذ بك الخلجات بعيدًا، فما ذلك إلا لصوتها الجَهْوَري في ترديد التنديدات، وبراعتها في مسك حبل المسيرات وقيادتها.. ثورية تعلمتها من أسرتها، من والدها المناضل الذي طالما رأته فوق السحاب كملاك أفنى نفسه في سبيل إصلاح الأرض.

كانت تنسج شعاراتٍ جديدةً مرافقة لأي نوع تنديد وأي هدف تنظيمي..

كان يراها كقنديل اشتعل من زيت أبدية لا تكلُّ عينها من طرح معين روحها الجياشة. كما رآها دائمًا كزهرة رابية وسط الزهور تشتعل بهاء ونضارة.

جمال وأنوثة؟!..

عن أي أنوثة تتحدث؟

ربما ألهبت به ذاك الشقّ العاجز منه، أو رآها مكملة متممة لذاك الجانب القاصر منه..

جانب الثورية!..

تودد لها.. وليس الود بالتدلل.. بل ببذل الأذى في تحمل هِراوات الشرطة ولكمات التيارات الأخرى.. طالما وقف حارسًا لمنشورات التيار، فانهالت عليه مختلف أنواع وأحجام الأيدي الهادفة للفتك

به. كان يقارع التياراتِ الإسلاميةَ الهادفة لاقتلاع كلِّ منشور مخالف لفكرهم، بل هو الآخر طالما حاول نتفَ وتمزيقَ منشوراتِ أعدائهم الأبديِّين.. بل كثيرًا ما تسلل إلى الجامعة ليلًا؛ كي يزيل أوراقهم من الدعامات الخشبية التي احتلوها.

كما وقف حائط صد أمام تدفق هراوات الشرطة، وأحذيتهم الصلبة.. فحملوه معهم وذهبوا به.. بل كان أول من يُتلقف من قفاه عند أي اصطدام. لقد أضحت مراكز الشرطة بيتًا ثان له، فما أن تشتعل مظاهرة حتى يسير معها بصف واحد، يردد ما جادت به قريحتها، وحاملًا لافتاتِ تنديد وشجب وتشنيع قد اختلط بها السياسي والاجتماعي والديني، ليجد نفسه مُقتادًا مع كل خرجة نحو «الواشمة" مُرَحَّلًا لقسم الشرطة، فأضحى وجهًا مألوفًا عندهم.. ما إن يلجُ القسمَ حتى يبدأ في التسليم والتقبيل المتواصل لرجال الشرطة، بل ويعزم عليه بعضهم لشرب كأس شاي أو تدخين سيجارة.. فهو على كل حال مازال طالبًا، والطلبة ببلادنا لهم وضع خاص!

بث لها ما بخاطره فقبلت..

هل أحبته؟

لا أدري.

لكنها ما فتئتْ تأخذه معها أينما حلت وارتحلت.. ككلب بطباط ودود ينبح كلما أرادت له ذلك.. ويهز لها ذيله فرحًا كلما جادت عليه

بكلمات شبه ودودة.. لكنه يتحول وحشًا ضاريًا عند كل نزال مع الإسلاميين أو المخزن.

كانت تشجعه في أن يملأ حوض ثقافته من معين الكتب اليسارية المعتمدة.. كانت تحدثه كثيرًا عن أحلامها اليسارية ونزعتها الثورية، وأبيها الذي تدفق دمُه من أجل مجتمع لا يأبَهُ بالحرية.. كانت تلقي عليه من حفظها أشعار مظفر النَّوّاب، وتتباهى بسفالة كلماته.. بل كانت تعيد ترديدها مرارًا وتكرارًا كأنها تنافس نفسها بحلبة رومانية قديمة!

كان يردد على مسمعها أقوال فيورباخ المادية، وجدليات هيجل، وآراء فريدريشإنغلس، ووجودية سيمون دي بوفوار، وفوضويات جوزيفشومبيتر، ومأثورات جورج حبش، وغيرهم.. وكان غالبًا ما يختم حديثه بقوله: وهذا ما يوافق طرح الزعيم الرفيق كارل ماركس.

كما أنه طالما اختار عباراتٍ اشتهر بها أبوها، فيرفعها لمصاف عرابي الشيوعية، ومفكري اليسار والماركسية.

إلى أن جاء اليوم الذي تخرجت به.. هو لم يصِبْ معدلات النجاح، فقد كان ذاك آخر ما يفكر به عند النظر إلى عيني صبرا المُتقدَتيْن.

لكنها نجحت.. نجحت وتزوجت وعملت بشركة رأسمالية.

قال لي باستنكار:

رأسمالية؟! وأين الشعارات، وقصائد النواب، ودرويش؟!.. ثم قد تزوجت أحد موظفي بنك المغرب!.. لقد أضحت تعيش أكبر تجليات الليبرالية المقيتة.

لقد رأيتها مؤخرًا وقد نمَّقت شعرها باللون الأصفر ودققت حاجبيها، وتأنقت في أبهى صرخات الموضة العالمية.

ابتسمتُ.. لست ساخرًا منه.. لكني سخرت من هاته الدنيا.. تأتي بزيناتٍ شتى ومتنوعة.. متبخترة في تكبر.. مال أو فكر أو رؤى منمقة.. فتجد المرء يبدل الوشاح الاشتراكي بالرأسمالي.. العلماني بالديني.. كلٌّ وشاح حسب وضعه ومبتغى جيبه.. ثم تجده في لحظة سمر يحدثك عن ملاحم شبابه!

الله أكبر.. الله أكبر.

كان صوت الآذان قد صَدَع من بعيد، وقف ونادى على النادل؛ كي يعطِه ثمن فنجان القهوة وخمس سجائر دخنها.. سألته عن وجهته.. نظر لي بجفنين مثقلَيْن بالهموم:

أنا ذاهب للصلاة.

هلوسة

فتحتُ عيني ببطء أتحسَّس الضياء، كادت مقلتيَّ أن تفارق النظر لشدَّة النور الذي أعماني.. جاهدتُ تدفق فوتونات الضوء نحو شبكتي. وبعد قليل، بتُّ أرى بصعوبة الوجهَ الذي أمامي..

مجاهدة أخرى تداعت معها عضلاتُ عينيَّ، تشكلت قسماته مباشرة بناظريَّ..

كان قريبًا جدًّا منِّي، بل أرنبة أنفه تتداخل مع خاصتي...

إنه وجهي...

إنه أنا.

لم تكن مرآة عاكسة ولا بحيرة نرجسية ترسم قسماتك في استهزاء.. بل كان أنا شحمًا ولحمًا.

فكرتُ في الابتعاد؛ فاستجاب جسمي فورًا، غير أن لطافته وخفَّته جعلتني أبتعد أكثر.. نظرتُ حولي لأرى غرفتي كما هي، غير أن ألوانَها تغيرت، بل لون الحياة قد تغير.. كانت نظراتي تجول بالأركان المحيطة، ثم تعرُج بين الفَيْنة والأخرى نحو جسمي الممدّد فوق سريره.. اقتربتُ منه بتؤدة، وحملت يدي لملامسة وجهي الذي أمامي، فاخترقته!

هل مُتُّ؟

هل أضحيت روحًا فارقت جسدي دون إذني؟

لا أعلم!..

قذف عيُّ الفكر وقصورُ الفهم القلبَ بجمرةٍ من ضلال وتيه؛ فاشتعل ضبابًا وغشاوة حجبتْ قلبي عن السداد.

لكن جسدي قد تقلَّبَ فجأة فوق فراشه، واتكأ على جنبه..

الحمد لله.. إنني حي أرزق!

لكن، كيف فارقتُ جسدي الفاني وأصبحتُ أسبح بالهواء فوق جسمي..

فوقه؟!..

نعم، لقد كنتُ أطير..

أطير كما يحلو لي..

مُجرد تفكير في الحركة.. أي حركة تخطر ببالي يسارع كياني إلى القيام بها!..

لا أعلم كيف، لكن جسدي أضحى لطيفًا خفيفًا يداعب ذراتِ الهواء كما يحلو له.

ثم هذا اللون البنفسجي الذي أصبح طاغيًا على الفضاء.. قد راق لي، وأضفى على الحياة غموضًا وأبهة.. مزيج مُحبَّبٌ فريد.. إنه لون المُلوك.

أعدت مداعبةً بصري بالنظر لأركان الغرفة التي استحالت ضبابيةً الآن.. بل أضحت تكتسب شفافية شيئًا فشيئًا، كأن الدنيا بدأت تختفي؛ لتترك مكانًا لهذا العالم الذي ولجْتُه..

ربما هو عالم موازٍ أو عالم برزخي.

طردتُ الاحتمال الأخير من سريرتي.. كأني أنفض مَوتًا سَرَتْ أنامله بين مفاصلي.

ثم بدأتُ أحس أن روحي - أو أنا، فما عدتُ أدري - تثَّاقل وتتوسل الأرض.. لكن أي أرض تلك؟

نظرت تحت قدميَّ اللتين عادتا إلى استقرارهما بمكانهما الأصلي، بعدما كنت أرفعهما وأُخفضهما كما شئت.. فالظاهر أن نيوتن بدأ يزجُّ بجاذبيته اللعينة بهذه الأرض الجديدة.. نظرتُ فما وجدتُ إلا بخارًا أحمرَ قد غطّى البسيطة من تحتي.. وما كادت رجلاي أن تطأ الأرض حتى أحسستُ بلزوجة باردة مائعة لامست قدميَّ.. كانت المرة الأولى التي أحسست بها، فسابقًا، كانت حواسي الخمس معطلةً ما عدا البصر.. حتى السمع ما عاقرته إلا الآن!

بدأت تخالج عصبونات سمعي أصوات صامتة.. ترسل ضجيجَها على استحياء كحمم مشتعلة تتوسل سفحَ البركان، لكنها تصطدم بصخوره المتصلبة.

كانت السوائل اللزجة هي التي تُحيك سيمفونية ذاك الصوت الخافت، تداعب أرجلي وقد سرت بلا وجهة!.. فتارة تتحرك يمينًا، وتارة تتوسل الشمال بحركتها.. كأمواج دقيقة ببحر لا شاطئ له.

ثم بدأتْ رجلاي في الحركة.. لم أفكر في ذلك مُطلقًا، ولم تُخالج طويَّتي رغباتُ الحركة.. لكن الرجلان قد دُفعتا ذاتيًّا، وبدأت تعقل وجهتها مكتفية بما تُمليه هي على نفسها، وقد هَجَرتْ وتمردت على عقلي الذي طالما طاوَعَتْه، وامتثلت لأوامره الصارمة!

رفعتُ عينيّ بعدما تحسستُ موقع القدمين، وتيقنتُ ألا هلاك ينتظرني بالأمام.. رفعتهما لأجد السماء قد غدَت زجاجًا مصقولًا يعكس رؤوس خلقٍ عَرَمْرم. كانت أمهات رؤوسهم تظهر كجيش نملٍ يرنو على ضحية غير مرئية وراء الضباب.

اِلتفتُّ حولي، لكني لم أرَ أحدًا.

أعدتُ العروجَ إلى المرآة الضخمة، فرأيتهم يدبُّون من بين البخار الذي بات عَطِنًا يزكم الأنوف.. كانوا بجانبي وقد مُلِئت البسيطة بهم.. لكني لا أراهم إلا عبر تلك المرآة الساحرة.. والظاهر أنهم لا يرونني هم - أيضًا - إلا عبْرها.

ظللت على تلك الحال مدة من الزمن.. لم أقدر على استيعاب حدودها، ولا تقييمها..

أهي مدة طويلة، أم قصيرة؟.

هل سرتْ قدماي أم لا؟.

أتحركت أم لا؟.

لا أعلم، وما عقفت مادتي الرمادية إلى تقييم الوقت إلا انتكستْ وأصابها القصور!

ما عدتُ أعي شيئًا، ولا أفقه شيئًا.. كأن تيهًا ذميمًا قد أحاط بي من كل جانب.. كأن وحشًا أسطوريًّا قد ابتلعني دفعة واحدة، وها هي ظلال أحشائه تُخيِّم على قلبي العليل.. تُغلفه وتقذف به إلى أرض يَبابٍ لا قبس نور بها، ولا شعاع ضياء يهدي السبيل.

تذكرتُ جسمي، فأنا الآن أتحركُ بدونه..

أو به!.

ما عدتُ أستوعبُ شيئًا، ولا أفقه سوى هاته المرآة التي تختلس النظر إليّ من علٍ.. ثم هي تستهزئ بي وتمدني بمعلومات لا أراها وبصور لا تحيط بي!

بعد مدة، واعذروني إن استعملت مصطلحًا زمنيًّا لا أفقهه.. فهنا لا زمان ولا عقارب ساعة تتحرك.. بدأتُ أرى من بعيد تلألًا تتذبذب في غنج.. تتمايل كأمواج ضخمة متثاقلة.

ما كدتُ أقترب منها حتى استحالت سرابًا..

بدأ المشهد يتكرر معي، وما أكاد أن أصل لإحداها حتى تختفي.. أردتُ أن أعرف كُنهها وماهيتها، فخالجت كينونتي فكرة النظر إلى المرآة، فما اقتربتُ من إحدى التلال حتى عرجتُ بنظري إلى الأعلى، فصُعقتُ واختل بصري حتى كدتُ أقع أرضًا، لولا أن أمسكتني رجلاي من المَيَلان الشديد.. فقد قلتُ لكم إنها لا تتبع أوامري، ولا تفقه إلا السير المتواصل!

كانت التلال تظهر كمَبانٍ شاهقة.. كأبراج مشيَّدة.. تملؤها الأنوار والأضواء.. يكاد بصرك يخفُت وينجلي من شدتها.. وذاك ما أربكني.

وصلت إليها مرة أخرى لكنها اختفتْ..

حملتُ عزيمتي على راحة يدي، وقررتُ أن أغوص بشأنها المرة القادمة، وأن أكشف عورتها بهذه المرآة الكاشفة.. فوقع ما وقع، واختل بصري مرة أخرى. لكنني لاحظتُ هذه المرة أن أناسًا تختفي بجانبها..

ربما تلتهمهم أو يلِجُونها..

لم أستطع كشف ذلك..

ثم تابعت المحاولاتِ، وتابعتُ حتى بدأت مُقلتاي تعتاد وتخطف مشاهدَ أكثر..

فمثلًا، بمَرَّة من المرات شاهدتُ أناسًا يرقصون ويغنون فرحين مسرورين وسط غرفة مُظلمة.. نعم مُظلمة.. ولا أعلم كيف استطاع بصري تلقُّف ذلك.. ومرّةً شاهدتُ شخصًا واقفًا يمسك بطرف خيط.. وقعتْ عيناي بعينه فابتسم في مكر واضح ليُرسل الخيط الدقيق الذي استحال حبلًا، ثم أفعى غرستْ أنيابها بعنق طفل رضيع.

تكررَ هذا المشهد كثيرًا.. لكن الشخص الأول كان يتغير مع تغير المشاهد، أما الرضيع فقد كان بنفس قسمات المرَّة الأولى.. قسماتٌ تجمع رقة الطفولة وبراءتها مع كلفٍ مظلم يتغلغل تحت عينيه، وأسنان قد نبتتْ لتضفي مسحةً من الرعب على وجهه.

كما أن مشهدًا آخر بدأ ينبتُ بالمرآة..

رجالٌ بيض لا يلبسون شيئًا يغرسون رماحهم بقلوب رجال سود.. لكن المشهد ما تكرر إلا وقد بُدِّلَت الأماكن، فصار السود هم من ينكزوا قلوب البيض.

لكنّ مشهدًا أخيرًا بدأ يخطُّ تفاصيله بالمرآة الضخمة..

غجرية قد تزينت ونمقَّت نفسها في أبهى حُلَّة.. تجري بطريق لا حدود له، وباتجاهات شتى، يتبعها الكثير من الخلق، يحاولون إمساكها فلا يستطيعون.. كان المُخاط يخرج من أنوفهم واللعاب يسيل من بين شفاههم، وأعينهم حالمة مثبتة على الغجرية التي ترسل غنجَها وتمايلها مرّة بعد مرّة،

كما كانت تُرسل ضحكات بديعة، تستحيل صراخًا مدوّيًا كلما دخلت حيِّز سمع أحدهم.. ليقف الشخص بعدها، وتبدأ أعضاؤه في التفتت والانصهار، ثم يختفي تمامًا، ويُعوَّض بآخر، يسير على خطاه ويقتفي أثره.

لا أخفيكم سرًّا أن الغجرية راقت لي، وسلبتْ عقلي وعصفت بفكري.

بدأتُ أحس بلعابٍ سال من أطراف فمي، فما قدرتُ على لملمته ولا مسحه.. ثم مخاط ذميم قد خرج من أنفي وعينيَّ.. وما كدتُ أراه بالمرآة وأجاور التلال المتحركة حتى التهمتني..

وبتُّ واقفًا أمام الغجرية..

مسحتْ على وجهي بيديها الناعمتَين، وقبلتْ جبيني كطفل صغير تداعب سريرتُه حنانَ الأم وولع العشيقة.. حرَّكتُ يدي كي ألمسها، وآثرت طويتي أن تعانقها.. فما كدتُ أفعل حتى انزلقتْ من بين ذراعي واستقرت بعيدًا وهي تضحك بنبرات تنشر بين مفاصلك رعشة جميلة لذيذة.

تبعتُها..

لا أدري كيف، لكني اشتقتُ لتلك القبلة، وذاك العطر الذي امتلأت به جيوبي الأنفية.. اشتقتُ للمسها وعناقها.. اشتقتُ لها وما كانت تكفيني تلك الضحكات القليلة التي جادت بها على فؤادي

العليل، ولا ما تبْعثُ من أريج خفّاق ليخفق معها فؤادي ويترنم على سيمفونيتها الأنيقة.

لم نكن إلا نحن الاثنين، لا ثالث لنا..

المرآة؟!..

كانت تكذبُ.. وتكذبُ..

مرآة كاذبة..

أما هاته الغجرية.. فهي حياتي ومستقر فهمي وعلمي!

وجاءت صَرخةٌ من حيث لا أحتسب، تصلَّبتْ لها عروقي وتفتَّتَتْ معها حركتي.. ثم بدأت أحس بتثاقلٍ يعم قلبي، وظلام يُغلِّف عيني..

ثم الفراغ..

لا شيء إلا الفراغ..

وفجأة، وبدون سابق إنذار اشتعلتِ النيران من حولي، وصار جبيني يتصبَّب عرقًا..

حاولتُ مسحهُ..

نجحتُ..

لكني اكتشفت ماهية العرق.. فلم يكن السائل الذي تفرزه مسامي إلا نجيعًا أحمرَ.. تقاذفتْ زخَّاتُه فجأة وتفجَّر مَعِينه، فأضحيتُ

كشلالات دم لا تعرف التوقف، سيل جارف من الدماء.

تلبدتِ الدماء، ثم أحاطتْ بي من كل جانب.. حتى إني أردتُ الصراخ فما استطعت.. أردتُ البكاء فما استجاب مَعِين الدمع.. حاولتُ وحاولتُ، ثم أخرجت صرختي من بين أضلعي مُمَزِّقة غشاء الكبح، ومُشتتة الهالة الحمراء الصلبة التي أحاطت بي.

فتحتُ عيني لأرى نفسي ثانية.. خُطف قلبي وطار من بين أضلعي.. لكنه رجع فاستقر واطمأن..

فقد كنتُ أنا الذي أمامي..

وجهي المُنعكس على مرآة غرفة نومي.

الشريط

أمام عينيه، انتصب الوجهان العجوزان يرمقانه في صمت. كان يتتبع التجاعيد التي اكتسحت محياهما كيأجوج ومأجوج شربوا من «طبريا" فاستحالت مفازةً لا فوز فيها ولا نجاح!

أرسل مَعينُ دمعه عَبرة حارقة اخترقت وجهه. كان بارد الملامح كأن الزمن قد مسح توقدها عبر السنين، بله السجن الذي يقبع به الآن.. لكن الدمعة زحفتْ مخترقة وجنتيه الذابلتين.

متى دخل للسجن؟ لم يعد يتذكر. لقد كشحَ زمن وردة ذكرياته وبسمة حياته، كيف أضحى غريقًا بين هذه البحار مُتلاطمةِ الأمواج.. كيف قادته قدماه لهذه الحفرة الغويطة؟

بدأت تجاعيد العجوزين اللّذين أتيا لزيارته ترسم خطًّا من ذكريات عشوائية.. نفس الوجهين كانا أمامه، لكنهما بدون تجاعيد، ترسم تقاسيمُهما لوحةً من البهجة والسرور. إنهما والداه، يجلسان أمامه، يتحدثان حول أمرٍ ما. أما هو فقد كان ينتظر على صفيح ساخن أن يؤذن له بالانصراف.

كانت عائلة منير تجتمع على قصعة الكسكس.. وَلَج أبوه للبيت توًّا من صلاة الجمعة، فرغم الحداثة التي طالما دندن حولها، كان يحمل صلايته المزركشة والتي صنعت بالصين، ويخرج برجلين متثاقلتين إلى مسجد الحي.. لم يكن يصلي إلا هاته الركعتين. طقس أسبوعي حافظ عليه بكل ما أوتي من قوة، إلى جانب وجبة الكسكس التي غالبًا ما اقترنت بالبركة، والبركة بالجمعة. فربما كان هذا سببًا في جعل يوم الجمعة موسومًا بقصعة الكسكس، أو العكس.

وبما أن المجتمعين على القصعة لم ينتهوا بعد، فالواجب الذي تربى عليه منذ صغره أن يظل جالسًا حتى يُقسَم اللحم بين أفراد العائلة بالتساوي.

بالتساوي؟!..

ربما ذاك ما يُشاع، غير أن الوالد غالبًا ما يسطو على أكبر حصة، أما الوالدة فكانت تكتفي بعظم دقيق أو شحم قد تأفف منه الأكلة!

جاء جرس كاتدرائية نهاية الأكل كرحمات نزلت عليه كزخَّاتٍ مطرية بشهر يونيو الحارق.. فقد قُسِّمت التركة اللحمية بين أفرد عائلته الخمسة.. هو وأبوه وأمه وأختٌ تصغره بأربع سنوات، وآخر عنقود الأسرة التي تبلغ سبعة أعوام.

نهض بعد ما ألقى آخر كرة كسكس ممزوج بحصته اللحمية إلى جوفه.. وتمشَّى بتثاقل مُصطنع مُجسد، كان يخاف أن يُظهر سرعة قلبه

ولهيبه المشتعل، وبريق عينيه وتوهجهما لمعانقة غرفته والانفراد بها خلف ستر الباب الخشبي، فيقذف شك أو ريبة جماره بقلب الأب.

سار ببطء نحو غرفته، ثم أغلق عليه الباب في تؤدة..

لا يوجد معه أي شخص.. لكنه ظل يلتفت هنا وهناك؛ لعل كاميرا مراقبة قد وُضعت بغفلة منه، أو ربما قد أصبح أبوه النجار مختصًّا إلكترونيًّا جلدًا بين ليلة وضحاها.

اطمأن أن المكان لا زال كما هو، وأن لا عين تراقبه ولا حاسة.. لكن المسكين نسيَ أو تناسى رقابة الله الذي لا تمسه سنة ولا نوم.. جلس على مقعده المبطن بالإسفنج، لقد اقتناه له الأب عندما نجح بالامتحان الجَهْوَري.. فرغم معدله المتواضع جدًّا كاد قلب الأب أن ينقلع من بين ضلوعه فرحًا.

كرسي كان كتاج لمكتبه المتهالك الذي يحمل حاسوبه العتيق.

لكن لا تذهب بفكرك بعيدًا في محاولة رسم حدود مكتبه وغرفته.. فالغرفة، التي لا تتعدى أبعادها المترين طولًا ومترًا ونصفًا عرضًا، لم تكن إلا مخزنًا للأشياء المتهالكة بمنزلهم، لكن ولوجُه للثانوية دفع أباه أن ينظفها ويرتبها له.

أعاد الالتفات يمنة ويسرة..

لا أحد.

إنه يعلم جيدًا ألّا أحدٌ معه بالغرفة، لكنه ظل يرتجف مخافة التلبس بجرمه القادم!.. أعاد القيام نحو الباب للتأكد من أنه مقفل..

ربما انفتح وحده!

أدار المفتاح مرة ثالثة عسى أن يطفئ نار التردد والخوف الذي دبّ بفؤاده.. أدار عينيه الذاهلتَيْن بأرجاء الغرفة، ثم عقف إلى مجلسه مرة أخرى، وأشعل حاسوبه الذي بدأ ينسج شاشته الزرقاء المُدنسة بأيقونة نظام النوافذ الإلكتروني (Windows).

تشكل فجأة المكتب المُميز لنظام النوافذ رقم سبعة.. عرج بنظره نحو درج مكتبه الوحيد وفتحه ليخرج جهاز النقل التسلسلي العالمي أو كما يُسمى باليو – إس – بي (USB).. أدخله ببوابته الخاصة، وبدأ يُقلب في مُحتوياته.

كان مُجلدًا واحدًا لا غير قد حافظ على اسمه التداولي الافتراضي..

مجلد جديد..

نقر نقرتيْن بزرٍّ فأرته السوداء ثم ولجه.. عشرات البيانات كانت تقبع هناك.. تردد في فتح واحدة ذات النوع المرئي..

تردد، وتردد..

نقر النقرة الأولى، ثم ألقى مشغل المرئيات بضغطة على لوحة مفاتيحه.. لقد ضغط على زر إدخال.

ثم تمثلت له في غنج واضح.. مشية متهلهلة وجسم مليح..

نعم صَدَقَتَ.. كان يرى محتوًى جنسيًّا!.

بعد قضاء الوطر الذاتي، واستمناءٍ دام طويلًا أمام ضياء الشاشة المُعمّي.. أعاد كل شيء إلى ما كان عليه.

لا تسألني.. ماذا وقع؛ فحروفي لا تنسج هاته النجاسات!

اتجه نحو سريره وألقى بنفسه بعد ساعتين من جنس متهالك.. لكنَّ قلبه لم يكن حينئذ ملكه.. لقد أحس به يتنصل من ضميره العفن ويؤنب فعلته.. كان فؤاده أمام الحاسوب راضٍ، لكنه الآن قد انقلب عليه، وبدأ في نصب صرح محكمة القضاء.

لقد بدأ إحساسه بالذنب يسري بجنبيه.. بل الآن، والآن فقط تذكر مراقبة الله.

أخرج عبرة يتيمة لكنها سرعان ما اختفت وسط بحر الذكريات.. تذكر كيف تأثر أبوه بنظرة التحرر الخاطئة التي تبثها شاشاتنا.. بل تذكر كيف سمح له بتقليب عشرات القنوات الفضائية دون رقيب ولا حسيب.. أصبح يتحين أوقاتِ بثِّ أفلام بعينها كي يعاقر خمر العُري.

تذكر كيف نسي أبوه يومًا ما شريط فيديو خارج دولابه الخاص المقفول دائمًا.. حَسِبَه آنذاك فيلمًا سينمائيًّا مثيرًا لجاكي شان أو بروس لي، فقد عج درج الوالد المقفل بمثل تلك الأفلام، التي كان يزج بها بمشغل الفيديو في بعض الأحيان، وأن تلك فرصة لا تعوض في مشاهدته، وإرواء ظمئ اللهفة في معانقة الأساليب القتالية للآسيويين التي طالما سلبت عقله فضلًا عن فؤاده.. خاصة وأن أباه قد خرج لمحل نجارته، ولن يلج المنزل قبل الغروب.

أدخل الشريط داخل المشغل.. أرجعه لأول مشهد به.. ثم شغله.. ليلج آنذاك عالم الرذيلة.. لقد كان الشريط يضم محتوًى غير أخلاقي.

منذ ذلك الحين، وهو مُدمن حتى الشراهة.

مُدمن، نعم..

لكن لا يد له فيما اقترف!

لقد عانق الرذيلة وإدمان الاستمناء، لم يعِ أكان يستمتع أم لا؟.. لكنّ شيئًا داخله أخذ يدفعه كل مرة لمشاهدة الإباحية والإبحار وسط أجسام النساء العارية؛ ليرجع بعد ذلك يُؤنبه ويرمي عليه عبارات اللوم الثقيلة.

بعد بضع دقائق من السباحة ببحور الذكريات، عاد للسباحة ببحيرة الشيطان.. لقد كان يقلب صورًا عارية ماجنة على حاسوبه!

تبددت الذكرى حزينة كدموع متساقطة من عينيه الذابلتين.. كان والداه قد ترجَّلا خارجيْن من المكان المخصص للزيارة، يجرَّان معهما ثقلًا من الأسى والحزن. لم يتكلما طول الزيارة، لم ينبسا ببنت شفة.

لقد اعتُقل متلبسًا في وضع مخلٍّ بالآداب مع رجل آخر!

الاجتماعيات

كنتُ جالسا بمقعدي الخلفي بحصة مادة الاجتماعيات.. لا أذكر كيف أهمل الأستاذ الحديثَ عن الحملة الفرنسية التي قمعت النهضة الإسلامية آنذاك!.. كان عصر الجبرتي الكبير مُشْتَعل العمل مُتَّقد الملكات التي بدأت تينَعُ بمختلف أقطاره، كما أن لبناتِ التجدد الديني والدنيوي بدأتْ تتشكل وِفْق سيمفونية النهضة.

كنت أريد مناقشة أطروحات المُقَرَّر، وإظهار بعض مزالق المؤلفين التي جاءت عن قصد أو غير قصد لترفع من شأن الحملة الفرنسية وتُضفي عليها هالة من الأبهة والإيجابيات المُقْحَمَة عُنوة.

لكنه بدأ حديثًا لا معنى له عن الأمطار الحمضية!.

عرج بعد حين إلى الحديث عن الفن والفنانات.. تلذَّذَ بذكره لبعض فضائحهم وآخر أخبارهم، كما تلذذ معه أغلب الزملاء في تحليلاتهم لتصريحات فلان أو أقوال علان بالمنابر الإعلانية، والتنكيت بتصريحاتهم، لتملأ شدوق التلاميذ قهقهة بين الفينة والأخرى.

أزمة ثقافتنا بدأت من هناك..

من بعض المحسوبين على التربية والتعليم، ولا هَمَّ لهم إلا أن يقضوا دوامَهم أمام التلاميذ تحت وَحْلِ أي موضوع، يُلوث القلوب والأذهان. فغالب تجاذب الحديث المطروح يتسم بالسطحية. خاصة أن بعضهم لا يتقن شيئًا بعمله وليس له رصيد كاف لحَبْك وسَبْك دواليب مادته.

الاجتماعيات..

مادة يكرهها أغلب طلبة العلوم التجريبية.. حسبناها بل صنفناها ضمن المواد الأدبية.. وما إن تسمع - يا صاح - أنها أدبية، حتى تتنمل ساقاك وتنفر سريرتك. فالأدب كان عندنا - يا صديقي - يُخْتَزل في الاستظهار فقط.

ومن ذاك نفرت أنفسنا من العلوم الإنسانية قاطبة..

نفرت من اللغة العربية والاجتماعيات بكل أنواعها: تاريخ، وجغرافيا، وتربية وطنية، ولهَاتِهِ الأخيرة طعمٌ مرٌّ بحلاقيمنا الطرية آنذاك.. دُرِّسناها كمن يحضر لحصص من العذاب النفسي..

ربما أرادوا أن نكره الوطن!

أما التربية الإسلامية، فانظر إليَّ وحقق فيَّ، ثم دقِّق في أخلاقي ومعاملاتي..

كيف أبدو؟..

نعم يا صاحبي ذاك سبب فساد أخلاقنا ودناءة معاملاتنا.. ثم تريدني أن أتحدث عن الفلسفة والفكر الإسلامي!.. كيف أتحدث عنها وأنا لا أعرف إلا تعاريفَ مقتضبة للأنا والهوَ، وأَخْتَزِل فكر المسلمين في حوار واحد وثنائية واحدة.. الجبرية والقدرية والتي لا تشمل هي أيضًا إلا تعاريف مقتضبة.

وقِسْ على ذلك.

فُطِمْنَا على أن العلوم التجريبية هي النهضة والحداثة، وأن لا مناص لنا للالتحاق بركب التطور سوى أن نمتطي العلوم الرياضية والفيزيائية والطبيعية، وألا ننسى أن نُنمق تعابيرنا وجملنا باللغة الفرنسية.. ذاك هو التطور والحداثة كما فُطمنا عليها وأُشْرِبنا لبَنَها، وجذوعُنا مازالت غضة طرية.

سمعنا صوت صافرة الاستراحة، ساعتان مرَّتَا في لهو الحديث.

حملنا حقائبنا واتجهنا نحو أدراج الطابق الأول.. أدراج قد فقدت أغلب إسمنتها المسلح.. رأيت أحد زملائي وهو يتمايل أمام الدرج الأول، كان صديقاه يمسكانه لأنه كاد أن يسقط. كان يضحك كثيرًا وبصوت عال، ثم يصيح أن الدرج قد ابتعد عنه وأصبح عميقًا.. رفع رجله ببطء شديد كَنِيُو (Néo) بفيلم المصفوفة (Matrix) يريد أن يوجه لكمته لِسيفر (Cypher).

ثم بدأ الهلع يعقد لسانه، بل مصارينه بدأت تتلوى خائفة من الدرج العميق!.

إنه ذاك المخدر الذي يزج بعقلك في بحور التيه، فَيُظهر لك الحياة مُشَكَّلَة في صورة مُشَوَّهة، كأنك تراها من خلف نظارات رديئة.

إنه مخدر المعجون..

أُمَّة خُدِّرت وما تتبعتْ طريقًا إلا مسالك السُكر والتخدير.. ربما هربًا من أزمات المجتمع المُتتالية.

ابتعدتُ بسرعة، ونزلتُ الأدراج لأجد نفسي بعد حين بمراحيض المؤسسة التعليمية.

نَتِنة، عَطِنَة، بل تزكم الأنوف.

لكنها – يا صاح – ملاذي لتحضير معشوقتي السرمدية..

أخرجت القطعة السوداء وأشعلت قداحتي مقربًا سمرائي الفاتنة منها..

بعد حين، كنت ألف سيجارتي المَمْزُوجُ تَبْغُهَا بحشيش كتامي صافٍ..

ماذا قلت؟.. ما خطب المبادئ التي حدثتك عنها والرؤية العميقة التي سطرتها؟

يا صاح، أخبرتك دائمًا ألا تصدق كلام التليفزيون!

مِينَة (أمينة)

هدا عيشور ما علينا الحكام آ لالّا.. عيد المِيلُود يحكموا الرجال آ لالّا..[1]

عيشوري عيشوري دْلِّيت عليك شْعُوري..[2]

كانت الأهازيج التي تخرج من فم العونيات[3] وترددها معهن النساء الحاملات لمختلف أنواع وأحجام التَّعَارْج والبنادْر[4]، يصل صداها للأحياء المجاورة..

إنها ليلة عاشوراء!

كنت غالبًا ما أجلس بعيدًا أرى تلك الأيدي الحديدية وهي تضرب بقوة على جلد الماعز.. أيْدٍ صلبةٌ كانت نتاج أكل الكسكس بالأيدي وقد

(1) هذا يوم عاشوراء، ليس علينا حُكمٌ اليوم.. فالرجال يحكمون بالمولد النبوي.

(2) عاشوراء عاشوراء، أرخيتُ لكِ شَعْري.

(3) فرق غنائية شعبية تتكون غالبًا من نساء الحي أو القبيلة وتنشط بالأفراح النسائية.

(4) التعارج: من تعريجة، وهي آلة موسيقية مغربية تستعمل بالأعراس الشعبية، مصنوعة من جلد الماعز والطين، أما البنادر: فجمع بندير، وهي آلة موسيقية مغربية تستعمل غالبًا بالغناء الصوفي وحفلات المديح، تصنع أساسًا من جلد الماعز والخشب.

اشتعل لهيبه الساخن، بل وتتبع السميد أو الشعير الساخن للفوز بالچُنة (وسط قصعة الكسكس، إذ تجتمع عصارة الصلصة بها). كنت أبتسم غالبًا من فكرةٍ كانت تُجَاوِر فؤادي كلما رأيتهن يُغردن بصوتهن الأشج.

يُغردن؟..

لا. بل، قصدت أنهن يصحن كماعز تائه بربوة قاحلة!.

جلد ماعز لصيَاح كماعز!

كانت مِينَة زوجة لحْبِيب مفقودة من ذاك الاحتفال الشعبي.. لم تسأل النساء الأخريات عنها، فهن يعرفن ميولاتها الخاصة بهاته الليلة.. كانت مينة تقصد حيًّا آخر متاخمًا لـدرب ميلان البيضاوي، لم تلتفت خلفها أبدًا فهي تعلم أن زوجها لن يتعقبها، ولن يتبعها بهاته الليلة، بَلْهَ[1] وهو يُدَخِّنُ السَّبْسي (الغُليون المغربي) بين أقرانه بالحي!.. وما إن يبدأ في لعب الغولف (لقب يطلقه المغاربة على تدخين السبسي) ويرتشف تَلْصِيقَة الشاي (تلصيقة: قدر قليل من الشاي يحمل عصارته) حتى ينسى نفسه ساعات، لا يستفيق منها إلا مع آذان الفجر.

خاطت أزقة الحي الضيقة، ثم ولجت في خفة أحد المنازل الضيقة والتي لا يفصلها عن الشارع إلا إزار سميك قد أرخى أسداله على ممر ضيق عطن.

---

(1) بَلْهَ: اسم فعل بمعنى: دَعْ، ويكون ما بعدها منصوبًا. أو مصدرًا، ويكون ما بعدها مجرورًا. أو بمعنى كيف، ويكون ما بعدها مرفوعًا. المعجم: المعجم الوسيط.

بعد بضع خطوات، وصلت لباب خشبي تنبعث من خلفه روائح متضاربة غير متجانسة، لم أُمَيِّز بينها إلا رائحة الجاوي والفاسوخ[1] اللذيْن يملآن الأجواء عادة بهذه الليلة.. لقد علمت ذلك لأني تتبعت خطاها مرة سابقة. فَعَادَتُها هذه ما اقتصرت على ليلة عاشوراء فقط.

طرقتِ الباب الضيق ثلاث طرقات متتابعات، فطرقتَيْن، ثم ثلاث أُخَر.. انتظرت قليلًا ثم سمعت نداء إحداهن:

شْكُون (مَنْ)؟

لتجيب مينة بصوت هامس:

قريب!

ذاك الجواب الذي لا ينمُّ عن شيء ولا يهدي لمعرفة الزائر.. لفظة قريب وحدها كافية لفتح الأبواب المُؤْصَدَة هنا بالمغرب.

فتحت الباب امرأة قد بلغت من العمر عتيًّا، واشتعلت خصلاتها المتناثرة من تحت طرحتها المزركشة شيبًا.. ثم أشارت لها بالدخول، لتلِج بخطى سريعة قاصدة مكانًا مهيَّئًا لجلوس الزوار!

جلست العجوز أمام مينة، ونظرت لها بعينيها الغامضتين، كانت تنتظر الزائرة أن تتكلم.

---

(1) خلطات من البخور تُستعمل غالبًا بالسحر وطرد العين.

مينة لم تترك جولةً للصمت، فما يكاد يسود ويُرخي ظلاله إلا مزقته، فتتابعت كلماتها الممتزجة بدمعاته الحارقة.

قالت لها إنّ زوجها قد زاد في غَيِّه وأنه لا ينفق عليها ولا على أولادها. أَجْرَتُه تَحترق بين السبسي والكيف من جهة، وتلك الساقطة ابنة الساقطة مَليكة.

لقد وجدت خصلاتِها على ملابسه، كما تتبعته بإحدى المرات، لتجده يلج الزنقة ثلاثة حيث كانت تسكن.

ثم وضعت كفيها الذابلتين على وجهها، وانخرطت في نحيبٍ اختلطت دموعها فيه بمخاط أنفها الأبيض.

سَأَلَتْها أن تجعل لها حِجَابًا (تميمة) نافذًا يُلقي به بين أقدامها، ويَجعله كالخاتم بين أصابعها.. مطيعًا بين أناملها التي شُقَّت وانتشرت أخاديد الزمن بين ثناياها.

أخبرتها أن تَميمتها الأخيرة قد خَفَّف من وطء الإهمال الذي يُكِن لها زوجها، أخبرتها أن مليكة تقصد شْوَّافَة (ساحرة) قَاسِحَة.

علمتُ فيما بعد أن هاته الكلمة الأخيرة (شْوَّافَة قاسحة) جعلت الساحرة تحضر تميمة ذات مفعول معاكس، فكيف لها أن تنعت منافسة لها بقاسحة شديدة الشأن وهي من أَفنت حياتها بين أزقة الجن ودروب الدمياطي وطلاسمه الغامضة.

علمت فيما بعد أن لحِبيب قد حُمل إلى مستشفى ابن رشد قسم المستعجلات.. لقد سقط مغشيًّا عليه بعد أن أصابه صرع شديد، تلوى على إثره وعُصرت به أمعاؤه.. ثم أخرج زبدًا من فمه ليفقد الوعي تمامًا.

حُمقٌ وعدم ثقة في رب الأرباب.. ذاك ما قاد مينة لتحضير التُّوكَال (سحر يوضع لمن يُرَاد سحره بالأكل) لزوجها عسى أن تنال مُناها وتبلغ مربط فرسها الذي انطلق في براري الضلال.

هل طَلَّقها بعدما علم بالسم الميتافيزيقي الذي زجت به في أكلته المفضلة.. الكسكس بالتفاية؟[1]

لا أعلم؟..

غير أنني رأيته وقد أصابه هزال شديد، يجلس بكرسي برأس الدرب وشوكته، وقد أمسك بعشيقته الممشوقة القوام.

ليست مينة بالطبع، بل عصا السبسي.

أما مينة فقد اختفت تمامًا من حينها.

---

(1) مزيج وسلطة ساخنة تتكون بالأساس من العنب المجفف والبصل توضع على الكسكس، تكون حلوة المذاق للسكر أو العسل الذي يُضاف لها.

مـــاء

يجر رجليه المثقلتين بهموم لا حصر لها على البلاط الزليجي.. كانت زليجاته تخفي نضارتها وبياضها خلف رمادية النتن المتجمع من ألوان المأكل والمشرب، بل يمكنك أن تدرك من عطنه أن فضلاتِ الأجسام ومخلفات الأسقام قد أبت إلا أن تضع موطئًا بين شوائب النتانة وقوالب النجاسة.

وقف أمام المرآة المعلقة التي لا تكاد تُبين، ولا لها لسان فصيح يبدي القسمات والملامح، فقد أثْقِلت برَوَث الذباب وفضلاته حتى غدت مظللة حالكة.

نظر إلى عينيه المنكسرتيْن التعِبَتين يبحث عن خيط يأخذه إلى الأيام الخوالي، أو نبراس من نور يُضيء له ما أسدَلَ عليه صريمُ الليل من أهداب وسُتور.

بدأت قسماته تَظْهر شيئًا فشيئًا على الزجاج المصقول وتزاحم السواد وتقتحم الظلال.. كانت معركتها شديدة عويصة، لكنها استطاعت أن تكسب الجولة، وترسي للملامح دولة.

لكن قسماته العليلة سرعان ما بدأت تنكمش أمام زحف الذكريات، وتنكشح أمام آلام النفس وما لها من آهات. وتنحصر عن بسط نفوذها، وتطلق الفكر بخيالها وشرودها.. وترجع خاسرة فاترة.

كان يجري بلا وجهة محددة، ولا قصد مُسبق.. يلتفت مرَّة تلو المرة، يمينًا ويسرة. كأنه مطارد من شبح أو شيطان رجيم.

وسط ميناء طنجة المتوسطي وبين صفوف الحاويات العملاقة، ضل طريقه وضل معه فكره ومنطقه..

توقف تعبًا، وما كاد يُلملمُ أنفاسه حتى أحس بذاك الشيء.

أحس باقترابه ليُعيد دفع رجليه وامتطاء الريح، عساه أن يبتعد..

إلى أين؟..

لا يعرف.

فلا وجهة ولا مقصدٌ يهرب له.

قبل قليل.. قبل أن يتفقد كعادته الحاويات المعدنية الضخمة، فكثير من الأحيان يجد بعضها تضم شابًّا أو اثنين يريدان أن يعبران إلى ما وراء البحر.. كان همه الأول كشف الحَرَّاقَة (المهاجرين السرِّيِّين)، وكشف مخابئهم العديدة بين الحاويات.

كيف يتسللون ويندسون؟.

ذاك هو الإشكال، بل هي إشكالية فلسفية وسؤال وجودي عويص!.

كما أن طبيعة عمله كرجل أمن وحارس خاص تستوجب عليه كشف السارقين ممن يتحسسون البضائع الصغيرة.. يتسللون، يحطمون الأقفال، يسرقون، ثم ينسلون من المرسى.. كيف يميزون الحاويات المعنية من الأخرى؟ ذاك ما كان يريد أن يسأله لهم!، لكنه لم يلتقِ بهم قبل هذا، غير الأثر الذي يتركونه غالبًا خلفهم.. تحطيم الأقفال الصامت، وعُتِيِّهم في البضائع ونهبها!

نفثَ آخر نفس من سيجارته البيضاء، ثم رمى بعقبها على الأرض وضغط عليها تحت قدميه عاصرًا إياها في حنق، كان تبغًا أسودَ ممزوجًا بحشيش كتامي رفيع، أهداه له صديقه الجَبَلي[1] الذي يزوره بين الفينة والأخرى.. لكن هذه السيجارة كان لها طعم خاص، لم يداعب لسانَه مذاقٌ مثله من قبل.. حتى رأسه قد طربتْ أكثر كأول مرّة يذوق بها الحشيش بحياته.

رفع هاتفه المحمول ليجد الساعة قد جاوزت الثانية ليلًا..

حان موعد جولته الروتينية الرتيبة..

تقلد عصًا خشبية ومصباحًا محمولًا وغطس وسط بحار الحاويات المعدنية الضخمة المرصوصة كأحجار دومينو عملاقة.

(1) نسبة إلى جبل، يستعملها المغاربة لتعريف سكان جبال الريف بشمال المملكة.

لكنه بعد دربَيْن أو أكثر، وجد حاوية مفتوحة. وَضَعَ ضوء مصباحه على المدخل، وضغط على عصاه، كأنه يحفزها للانقضاض.

سيقابل السارق أول مرة..

وسيسأله لا محالة عن طريقة تعرفه على الحاويات المعنية!

لكنه لاحظ أن القفل غير مُحطم ولم يُفتح عنوة!

أقفل المصباح وأطفأ شعاعه وَوَهَجَه، كما نكس عصاه بمحاذاة فخذه، والتصق بإحدى الحاويات وأخفى جذعه بها..

بدأت الأسئلة تتضارب بكيانه ليتسارع معها وقع نبضاته، وتشتد شهقاته وزفراته، حتى أضحت تحاكي علو وانخفاض صدره، وتتناغم مع أنفاسه المتسارعة ودقات قلبه المتعاقبة، حتى كاد قلبه أن يشق قفص صدره، ويتفلَّت ليعانق الحرية طائرًا مغرّدًا بالأجواء.

وأيةُ أجواء مشحونة هذه؟

لا أثر لتحطيم أو فتح بالعنوة.. هذا الموقف لا يدل إلا على أن أحد المسئولين ممن طالت يداه المفاتيح، يتفقد شيئًا مهمًّا، جلبه إلى المرسى بهذا الوقت، أو يقوم بعملية سرقة مدروسة مدبَّرة.

لكنها عملية تُحاك بالأعلى لا محالة.

تُحاك وسط أعلى الكراسي الإدارية هنا.

ماذا سيفعل؟..

سيعود القهقرَى، وينسى الموقف.. فلا طاقة له في مجابهة المسئولين، ولا مورد رزق له إلا هذا العمل.

فكر في هذا مليًّا، وشارف على الذهاب.. لكن سرعان ما نفض عنه تلك الخاطرة.. إذ شاهد ضوءًا أزرقَ أضحى يرخي أشعته بين فتحات الباب، وشقوق الحاوية، يتوهج كضوء مصباح نيون شديد اللمعان وكبير التوتر الكهربي.

حاول أن يرمق ما يحدث داخل الجدران الحديدية من مكانه، لكن الباب وقف حاجزًا ومانعًا للرؤية.. جاهد الرعب والهلع بعدما مسكًا بدروب وعْيِه وأزقة إدراكه، ثم حرك رجليه قسرًا مغتصبًا الانتصاب اللاإرادي الذي كانا يسبحان به، ثم توجه بخطوات مترددة متباطئة نحو الحاوية المتوهجة.

بعد خطوات معدودة، كان أمام الباب الحديدي الضخم المفتوح. وقف قليلًا يحاول جمع أحجية تنفسه المتناثرة، انتظم اضطراب أنفاسه، ثم أمال جذعه ليختلس النظر عمَّا يحدث وسط هذه الصفائح المعدنية السميكة، وما كادت عيناه تقع على المشهد حتى تسمَّر سهمُ بصره وجحظت عيناه وفغَرَ فاه.

أرجع بسرعة استواءَ جذعه بحركة غير إرادية، ووضع كفه على فيه مانعًا حنجرته من إرسال صرخة أو كلمة أو حتى نفس!

تعالت ذبذبات صدره وضربات فؤاده، وأصبح الضباب يرسم بياضه بريشة الفزع اللعينة بحيز بصره.. خاف أن يقوده ما رأى إلى غيبوبة رعب، لكنه تمالك ساقيه وقبض على صدره، ثم بدأ يبتعد بتؤدة عن الحاوية الملعونة!.

نعم إنها ملعونة بلا شك، لقد رأى بها مشهدًا لا أساس له ولا منطقًا يدعمه.

ماء متوهج باللون الأزرق، يومض في تناغم وتناسب.. تمثل في شكل هلامي تتلاعبُ أطرافه بعشوائية.

كانت الهالة المائية البوهيمية تنخفض وتصعد في حركة غير متناسقة، وقد نشرت أطرافها ومياهها على كل جدران الحاوية الداخلية.. لم تكن ميوعتها لطيفة كالماء.. لقد كان لزجًا كمخاط أزرق ضخم قد قذفت به أنوف الجبابرة.

أما عن ماهية البضاعة التي كانت تحتويها، فهذا ما لم يستطع تمييزه.

ومن يدري؟

لعلَّ البضاعة هي ذاك الكائن المائي المتراقص.

بدأ يتمتم ببعض آيات من الذكر الحكيم، لكن الأمر اختلط عليه فأضحى يمزج الآيات ويخلط السور ويبعثر حروف الكتاب، ثم أحس برطوبة بدأت تسري بالأجواء خلفه.

تذكر أنه أسقط العصا هناك بجانب الباب..

زادت مقلتاه جحوظًا حتى كادتا تنقلعان من محجريهما..

أدار عنقه ببطء..

ثم وقع بصره عليه مرة أخرى..

لكن هذه المرة كان متمثلًا في حدود بني الإنسان، فكأنه آدمي أزرق تتلاعب حدوده وتتمايل كأمواج على شاطئ جلدٍ أزرق يكسوه من أسمى ذرة مائية برأسه، حتى أدنى واحدة بقدمه.. كان وهيجه ووميضه قد خفت واختفى، بل قل إن الضوء الأزرق الذي كان ينبعث منه قد اختار البقاء بالحاوية.. أما ملامحه، فلا تقاسيم ولا حدود للوجه، لكن الحارس الأمني شم رائحة الغدر والمكيدة المنبعثة منه.

يقال إن الماء لا ريح ولا لون له.

كذبوا..

بل ريحه رائحة النجيع الأحمر، ولونه لون الافتراس والانقضاض..

ثم جرى.. جرى بكل ما أوتي من قوة.. حمل بالريح رجليه دون وجهة، كان الجسم المائي يطارده.. مرة يجري كالبشر، ومرة ينساب ماء متدفقًا فوق البلاط الإسمنتي، ومرة يتلوى كأفاعٍ سامة تتوسل لدغ الحارس المسكين.

ماذا يريد هذا الكائن؟

وما هدفه؟

بل من أين جاء؟ وما هي وجهته؟

كان يلعن بداخله صديقه الطاهر، أوليس هو من رَجَاه بالأمس أن يتبادل ورديته معه؟.. وأرشاه ببعض الكيف الجديد القادم حديثًا من كتامة.. لقد عمل اليوم نهارًا وليلًا، كي يُعَوِّض صديقه، فقد ذهب لخطبة ابنة عمه التي كان يحبها.. فمنذ صغره كان يـــ..

أي عتهٍ هذا الذي يتذكره الآن؟ وهذا الكائن الملعون يتوسل الفتك به!

ثم بدأت أنفاسه تتقطع بسكين التعب، ورجلاه تثَّاقلان من شدة الجهد الذي أضحى يخدر جميع بدنه..

أَمِن فعل الكيف الذي بات يرسل تخديره اللعين بجسده المتهالك؟..

أم هو التعب والجهد من الجري المتواصل؟..

اللعنة سيمسك بي..

هذا ما فكر فيه.. أراد المقاومة لكنه استسلم.. استسلم ليسقط على عتبة مكتبه، كانت تفصله أمتار قليلة عن دخوله. رفع عينيه تجاه

الباب المفتوح والإضاءة الخافتة، كأنه بحلم بديع، ثم أطلق ابتسامة ساخرة.. فحتى لو ولجه، سيصل المائي إليه، سينفد لا محالة من أية فتحة ولو كانت بقطر رأس نملة.

أوليس اللعين من ماء؟!

ثم أرخى وجنتيه، وبدأ يستسلم للظلام المستبد على أشعة النور العليلة، ليحس كأنه يغوص ببحر لا قرار له، لكنه لم يكن ماء أجاجًا بل كان زلالًا، حلو المذاق، غير أنه ثقيل يجر جسدك الفاني إلى قاع لا قرار له، غويط لا قعر يحدّه..

ظل الظلام مسيطرًا مستبدًّا إلى أن هتك ستره ضياء أزرق براق، يومض من خلف الظلال. سرعان ما نشر هذا الوميض شعاعًا أزرق بديعًا عمَّ المكان. فإذا بالحارس يجد نفسه واقفًا على مياه بحر هادئ يرى الشمس تبتسم إليه.

سحرت عينيه، ودَعَتْه للدنو.

بدأ يخطو على الماء المتلألئ لتتطاير ذراته ملامسة وجنتيه.

إحساس رائع داعب فؤاده، ورعشة فريدة سرت بين مفاصله.

بعد بضع خطوات بطيئة، دنتْ الشمس منه حتى شارفت أن تلامسه.. لكنها لم تكن حارقة، بل كانت تبعث دفئًا ينظف القلب من

شوائب الزمن، ثم انكمشت حتى أضحتْ كالخرزة الصغيرة، واتجهت نحو قلبه في بطء، لتلج صدره وتختفي خلف أضلعه، ثم انطلق صوت جَهْوَري ملأ أجواء المكان.. كان يقول مرددًا بلا كلل:

أنتَ المختار.. أنتَ من ستجوب الأقطار.. ناشرًا السلام مزيلًا الدمار.. لقد تطهر قلبك من كيد الأشرار.. وغرس الإله به حكمة الأبرار.. فاذهب وبشر؛ فأنت المختار.

نعم، كلام ركيك.. لكنَّ هذا ما سمع الحارس أو المختار على ضفاف البحر الأزرق المُشع.

ثم اخترق صوتٌ آخر العالم الذي كان به.. كان يرسل كلمة واحدة..

المُختار.. المُختار.. المختار.

وبدأت أشعة صفراء حارقة تتسلل إلى عالمه، فأحرقت جدرانه وثناياه، وأخفت ملامح الوميض الأزرق الرقراق.. ثم اندفعت نحوه لتُعمي بصره، ووضع ذراعه أمام عينيه كي يحاول كشف كُنْهِ الضياء الحارق، والشعاع المارق.. جاهد النور المتوهج وفتح جفنيه المغمضتَيْن، لتتمثل أمامه قسمات وجهٍ مألوف يصيح في عصبية..

المختار.. المختار.

لقد كان ذاك اسمه، أدرك أن الصوت والوجه لصديقه الطاهر الذي تفاجأ عند مجيئه للعمل مع السابعة صباحًا بصديقه المختار ممدّدًا بجانب غرفة مكتبهم الخاصة، وقد ابتلت ملابسه كلها.

رفع الطاهر رأسَ المختار محاولًا أن يُشْرِبه بعضًا من الماء.. لكن رجل الأمن رفض..

نهض بصعوبة، ولجَ المكتب، وحمل حقيبته، ثم توجّه خارجًا من باب المرسى الضخم..

كانت تلك آخر مرّة يرى الطاهر صديقه.

اندلعت معركة أخرى بين خيط ذكرياته وقسمات وجهه؛ لتفوز هذه الأخيرة بالظهور على المرآة المتسخة شديدة الظلال.. نظر إلى عينيه الزرقاوين اللّتيْن تشعّان وميضًا أزرق، كمصباح نيون رديء يرنو إلى الخفوت، ثم أطلق ابتسامة ماكرة.

لقد تحسنتْ نفسيته مع الوقت.. لم يعد يصيح كثيرًا.. كما أن هلوساته حول الكائن المائي الأزرق الذي كان يدعي أنه مَلَكٌ قد أرسِل إليه وأخبره بنبوته، أصبحت قليلة.. بل شبه منعدمة.

كان الطبيب النفسي المسئول على الحالة يحادث زميله من خلف زجاج الغرفة، وهم ينظرون للمختار الذي ظل واقفًا أمام المرآة ساكنًا

لا يتحرك نحو ثلاث ساعات.

لقد كان يتعاطى جرعات عالية من الكيف والحشيش.. للأسف لقد أتلف خلاياه الفكرية، وأعصابه الحسية.

أضاف الطبيب المعالج، ثم أشار للممرض الذي اتجه فورًا نحو المختار، مسكه من ذراعه فانصاع له على الفور.. ثم ذهب به إلى غرفة العلاج الخاصة.. كان يتبع الممرض دون تعنت ولا مكابدة.

بعد قليل، سُمع دوي من الصراخ العالي بقعر الرواق المخصص للمرضى المجرمين.. إنه صوت تأثير الصدمات الكهربائية.. كان المجرم المختل عقليًّا والذي قام بعملية قتل، أزهق على إثرها روح زوجته وثلاثة من أطفاله، كما جزَّ رأس أبويه وجاره المسن.. كان يقول إن الله قد أمره بذلك..

كان اسمه المختار.. حارس أمني سابق.

رسالة شجن

صديقي العزيز يوسف،

أمسكت قلمي.. ورجوت من الله العلي القدير أن أجدك على خيرِ حال وصحة وعافية.

أردتُ أن أبعث لك زفراتي وهموم فؤادي، لقد ضاقت بي الأرض بما رحبت، وتملكتني الشجون والأحزان.. بل الخوف الممزوج بالقرح، فأنت تعلم ما أحمل من ثِقَلٍ مفهومِيٍّ ومبدئيٍّ يجعلني أتصادم كثيرًا مع رؤسائي بالعمل، وهذا ما أردت أن أحكيه لك وأبث شجون نفسي نحوك..

لقد وقعتْ يدي على مستندات خطيرة تُوَرِّط رئيسي المباشر بالعمل. لقد فتشت أرشيف الصفقات السابقة والتي انقضى عليها سنتان، كنت أقوم بمراجعتها وتصنيفها حسب ميدان عمل زبائننا والمقاولين الفرعيين الذين نتعامل معهم.

فوجدت المستند!

لقد أهمله - غالبًا - الرئيس أو لم ينتبه له وهو يُحمَل من مكتبه ليُوضع بالأرشيف..

الآن، فهمت لماذا كان توثره باديًا آنذاك، فخطأ مثل هذا سيكلفه حياته العَمَلية كلها.

أذكر أنه كان يقلب ملفاته باستمرار ويفتش أوراقه وأوراق المكاتب الأخرى.. لم يكن يقترب من مكتبي، فهو يعرف صرامتي، بل قد شك في أن المستند قد وقع بيدي، ذاك كان سر نظراته الحاقدة تجاهي.. لكنها أُطفئت مع مرور الوقت، فلو صدق ما توقع لكنت قد رفعت بها تنديدي على الفساد المستشري، والذي لم أكن قد وضعت دليلًا بعْدُ عليه.

ذاك ما خطر ببالي عندما وقعت عيني على تلك المناقصة التي فُوِّتت لصديقه وربح على إثرها صفقةً جاوزت المليار درهم!.. لقد ضَمَّتْ الورقة وحوت طامَّات ستأخذه خلف شمس العمل إلى كوكب العطالة على الأقل، إن لم يُحوّل التحقيقُ المهنيُّ إلى جنائي!

ذاك ما حسبتُ وما خالج شعوري، ولا أخفيك أنني فرحت كثيرًا لذلك، بل وقلت إنني سأحصل على ترقية ومنصب أسوِّي به ما نخَرَ الزمان بحياتي المتهالكة.. وبنيت لذلك صرحًا من الأحلام، التي اكتشفت - لاحقًا - أنها أوهام.

كان مدير المركز والمسئول المباشر على رئيسي رجلًا تَقِيًّا نقيًّا، بل يصلي معنا في غرفة قد خصصها للعبادة فور قدومه وتعيينه بالمركز..

رجل قلَّ نظيره بهذا الزمن، فأن تكون ذا مكانة عَمَلِية ولا تطغى تلك البروتوكولات والماديات على إيمانك ولا تحيده؛ فذاك أمر نادر إن لم يكن قد انقرض!

لم نكن ندعوه إلا بالحاج مصطفى، حتى أنه كان يرسل لنا حنانه ابتساماتٍ مع كل لقاء نشهده.. ثم مُرَتَّباتُنا قد عدِّلت قيمتها، ورُفع سهمها بالسنة الفائتة بعد عشر سنين من الجمود رغم حناجر النقابات التي مسّها الصدأ شيئًا فشيئًا إلى أن أُلجِمت.

دسستُ المستند الشاهدَ على فساد رئيسي وحملتني رياح الشوق لمعانقة فَضْحِه عند المدير المركزي، الحاج مصطفى.

شرحت له كل شيء، بل قد زدت بعض التوابل على كلامي مُتهمًا إياه باللعب على حبل الفساد المالي، وقصصت عليه بعض الإشاعات في استغلاله لبعض الموظفات جنسيًّا.. بدا مهتمًّا هادئًا لم ينبس ببنت شفة، لكنَّ عينيه جحظتا عندما أعطيته المستند.. قرأه وأعاده، ثم أصبح يردد دون توقف كلمة السافل وغيرها من عبارات القدح والسب، مما لم أعتقد قط قبل ذلك أن لسانه قد يلهج بها!

بعد دقيقتين أو أكثر،

أنت تعرف دقَّتي في الوقت وعقرب ساعتي البيولوجي المُنضبط، لكنني حسبتها آنذاك ساعة أو أكثر لفرط توثري..

نظر إليَّ مليًّا، وسألني إن كنت أخبرت أحدًا، فمثل هذا الأمر وجبَ التعاملُ معه بحذر زائد، طمأنته أني قصدته مباشرة بعد وقوعي على المستند.. شكر لي وهنأني على مبادئي وحرصي بالعمل، ثم ربَت على كتفي بعدما نهض عن مكتبه الضخم، وحَمِد الله أن البلاد مازالت تزخَرُ بمن هُم مثلي..

وأنا الآن أكتب لك كلماتي هذه، أعاتب نفسي عن ذهابي عنده.. فالحاج مصطفى لم يكن إلا شيطانًا في لباس الملائكة. نعم.. صديقي، لقد طُردت بعد مجلسين تأديبِيَّيْن تحت تهمٍ مختلفة.

أما النقابة، فقد كانت عونًا على مناضلها الفقير، وسوطًا على ظهر العامل الضعيف.

تلك حرب مصالح يا صديقي.

حرب مصالح، وقد زججت بأنفي بها..

أما رئيسي بالعمل فقد تقلد منصبًا إداريًّا رفيعًا، وعُوض بأحد قياديي النقابة العُمَّالية الذي لا تصل درجته الجامعية درجتي، ولا سنين تجربته لتجربتي، بل عمله لا يتعدى التفرغ النقابي الصُوري..

كما أن كتابتي هاته تختلط أحاسيسها مع خوفي وترقبي لطعنة سكين، أو سُمّ قاتل ينهي سويعات حياتي..

لماذا؟..

تلك قصة أخرى يا صديقي.

قصةٌ، ربما لن أتمكن من سردها لك..

محبُّك، وصديقك.

ظلام التيه

دائم التعثر بدراسته.. ما يكاد يرفع رجله نحو مستوى ثان إلا ويضعها مستأنسًا بقسمه، تتباين الوجوه أمامه وتتعدد تقاسيم زملائه.. يتركونه، ثم يكملون مسيرة دراستهم، كمحطة وقود قديمة ترى العديد من أضواء السيارات لكنها تقبع بمكانها تقاوم الصدأ!

وصل بشق الأنفس، بعدما قطع عقبات الابتدائي ووديان الأقسام الإعدادية وجبال الدراسة الثانوية؛ إلى قسم البكالوريا.

هنا وضع السلاح..

رغم أنه سلاح صدئ لم يكن في حجم المعركة الدراسية، لكنه وضعه مستسلمًا، حَدَّثَ والدته أنه يريد أن يلج التكوين المهني.. حدثها عن صديق له قد عانى من البكالوريا، فلم يجد بديلًا غير التكوين المهني. بعد عامين من دراسة ممتعة خالية من تعقيدات الرياضيات والفلسفة وغيرها من المواد الثقيلة السمجة التي لا تنفع بل تضر عقول بني آدم؛ أخذ دبلومَ تقني وتوظف بإحدى الشركات الكبرى. لقد افتتح حياته بأجرة تتعدى الأربعة آلاف درهمًا.. ثم قارن ذلك مع أحد قاصري الفهم ممن خاضوا غمار الجامعة ليجد نفسه

حارسًا أمنيًّا، برتبة ليسانس آداب، أمام باب إحدى الشركات بمرتب لا يتجاوز الألف وخمسمائة درهمًا!

كانت الأم تعرف صديقيه معًا، لذلك اقتنعت بكلامه وبدأت تنسج الحجج التي ستقنع بها الأب.

تذكرتْ كيف حلم الأب قبل سنوات أن يصبح ابنه البكر موظفًا بالوزارة التي يعمل بها، كان يراه كإطار رئيسي داخل مُديرية الموارد البشرية التي كان يعمل حارسًا بها.. حارس ليس له من حراسة ذاك المبنى إلا تقديم الشاي وإحضار القهوة والسُخرة!

إلا أن الابن لم يكن على مستوى طموحه.. بدأ يعاود القسم مرات ومرات، اتبع سبيل أصحاب السوء حتى صار عرابَ حيِّه.

لم يطلب منه درهمًا واحدًا منذ ولج الإعدادية، كان يعلم أنه يتاجر في السجائر المهربة وبعض قطع الحشيش، بل فَطِن أنه يصنع المعجون.

طالما كان يتملص من مباشرة المشتكين الذين أُلِفوا طرق منزلهم للشكوى من خُلُق الابن العاق.. كان يبرر موقفه بأن يديه قد عَيَت من كثرة الضرب، وأن جلد الصبي أصبح أقسى من جلد التمساح.. لا يحس بعصا ولا بالخرطوم الصلب المفتول.

ما إن فاتحته الأمُّ بمراد الفتى حتى وافق.

كان ذاك آخر أمل، مع أنه فقد الأمل - فعلًا - في ابنه.

تذكر يوم جاءه بريد من الشرطة ليجد ابنه الذي غاب لأسبوعين بحالة يرثى لها.. سأل عن جريمته، لأنه يعي أن ابنه لا يعاقر التهم بل يرتكب الجرائم، قالوا له إنه مُسك بإحدى الشاحنات الضخمة العابرة للحدود وهو يحاول أن يعبر للضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط.

كان عقابه شديدًا، لكن الأب تعود بعد هذه الحادثة، فقد ذهب لجلب ابنه من مخفر الشرطة أكثر من ثمانِ مرات.

ثم هو لن ينسى أن ابنه قد ابتزَّه يومًا..

كان ذلك قبل خمس سنين.. كان يجلس بمقهى سبونسورين التي كانت تروج للتيرسي (قمار سباق الخيل)، وكعادته كان يخطط أرقامًا بورقة بيضاء قبل أن يضعها في الورقة الرسمية التي سيُشارك بها بقماره حول ترتيب الفرس (العَوْدَة)، كان يمزج الشاي ببعض نترات من سيجارته المُعانقة لحشيش رديء.

ثم فاجأه ابنه وقد جلس بالكرسي المقابل له. أراد أن يسُبه وأن يُهيل على سمعه أقبح العبارات لتجرُّئه على قطع حبل أفكاره واحتمالاته الرقمية.. لكن ابنه دفع إليه هاتفًا ذكيًّا قد ضم صورة ما.

جحظت عينا الأب، وقذف بالهاتف نحو الأرض فتطايرت أجزاؤه وتهشمت شاشته. أطلق الابن ضحكة ماكرة، وأخبر الأب أن الصورة مازالت لديه بأجهزة أخرى. طمأنه أنه لن يخبر أمه بما اقترفه بسوق المتعة، فهو يعلم أن والد أمه سيمسح به الأرض، خاصة أنه يعلم الشيكات التي يهدده بها صهره كلما اقتضى الأمر ذلك.

كان الأب ينظر إلى ولده الذي فاجأه بصورة له بحضن إحدى مومسات الحاجة فاطنة.

من أين أحضرها؟

ذاك ما لم يدرك..

لم يدرك أن ابنه كان أحد صبيان الباطرونة (كبيرة الغانيات) وأنه يعلم أن أباه كان كثير التردد على شقتها..

سأله عن مبتغاه بهمسٍ مرتبك.. لكن الابن لم يزد أن طلب منه أن يُيسر له سفرًا إلى الخارج.. كان ذاك سفرًا نصف شرعي نحو إيطاليا، كانت تكاليفه مرتفعة، لكنه فشل.. فقد قُبض عليه بالقطار بين هولندا وفرنسا..

ورحَّلته السلطات الإفرنجية للمغرب.

لم يتكلما بعد ذلك عن تلك الصورة، رغم مواظبة الأب بعد ذلك على زيارة الحاجة فاطنة.. واشتغال الابن معها!

ثم ولجَ الابن التكوينَ المهني، كان يجلس بجانبي بآخر الصف.. لطالما لَفَّ النفحة بورق النيبرو الدقيق، ووضعها بين شفته وأسنانه، لينتشي بعبق التبويقة (التخدير).. لكنها كانت سرعان ما تفقد لمستها السحرية ليقذف بها نحو السقف، فتلتصق به ويصنع أخرى.

لم يكن مهتمًّا بما يقرأ فقد أخبره صاحبه أن التطبيقي هو الأهم، وإن أتقن استعمال فرشة الصباغة فسيأخذ الدبلوم.. لكنه لم يتقن ذلك بل لم يتتبع خط صباغة واحدة، لكن لا يهم فقد أغدق على أستاذ المادة مبلغًا ماليًّا مهمًّا، وأصبح بين الفينة والأخرى يهديه علب سجائر فاخرة.. ويجود عليه بمبالغ مالية.. هي صغيرة، لكنها تفي بالغرض.. وفعلًا قد نجح وحصد مرتبة جيدة، فأخذ دبلومه وخرج إلى سوق الشغل باحثًا عن وظيفة الأحلام.

لن يتقاضى أربعة آلاف درهمًا كصديقه الغبي، بل يطمح أن يبدأ مسيرة عمله بأكثر من ستة آلاف درهمًا.

لا، ليس بالكثير لشخص في مثل نباهته كما قال لي يومًا وهو يمصمص النفحة بالقسم، ويحكي لي قصصه مع أبيه.

أما أنا فقد ولجت عملًا محترمًا تعلمت به أصول الشغل فأصبحت رسامَ ديكور مُعتمدًا.. كان العمل شاقًّا لكن المكابدة ضرورية خاصة بميدان لا يعترف إلا بالإتقان. الآن، أنا أحضر لامتحان البكالوريا

الحرة قصد متابعة دراستي بحصص التكوين المهني المسائية.. سأتتبع مساري بعزم وأحصد دبلومَ تقنيٍّ متخصص بحول الله.

أما صديقي فلا أعلم شيئًا عنه.. غير أني كنت ألمح من بعيد شخصًا يشبهه.

كان يحمل منديلًا أصفر يُلَمع به السيارات التي تنتظر الضوء الأخضر قصد التحرك، وبيده الأخرى سيجارة قد شُنِقَت المرة تلو المرة حتى احترق ورقها ووُشِّح بالسواد.

لكن للأمانة ما شاهدت ذاك الشخص منذ مدة.

عرجت بدراجتي النارية إلى محطة المحروقات بجانب أضواء المرور.. سألت عنه أحد العاملين، كان يعرفه بل ذكر لي اسمه..

إنه صديقي كما توقعت..

قال لي إنه قُتِل..

قضية هُزت لها منابر البيضاء الصحفية..

لقد قتل والديه، وانتحر!

انتظار

كانت جالسة بإحدى الطاولات الدائرية الكبيرة التي تعرفها حفلاتنا وأعراسنا الآن. أعراس ابتعدت عن العونيات واللمة التي تجمع نساء الحي والعائلة، تلك البساطة التي كنا نعرفها بصغرنا، لتضيع خلف أوركسترا فلان وعلان، وخلف قاعات الحفلات الضخمة، ويحل معها الرياء والسمعة و"بان عليّا وبان عليك".

لم يكن المدعوون قد حلّوا بعد، ولا يُسمع إلا صراخ مزعج يخرج من لاقط صدئ يَدَّعون أنه يجربون صداه ونقاءه.

نعيمة كانت قد حلت قبل موعد العرس بساعات، فطموحها للتخلص من زوجها، جرها لترك المنزل مبكرًا بحجة عرس صديقتها.. هو كان مدعوًّا لكنها لم تخبره، واستغلت التوتر بين زوج صديقتها (العريس) وزوجها استغلالًا مجحفًا يزيد التنافر بلا شك.. لكنها كانت تحب ذلك، فهي لا تطيق زوجها.

جلست بجانبها إحدى السيدات المختفيات خلف طبقات عدة من الماكياج، فلا تكاد ملامحها تُبين قسماتها، كما صارعت ألا تبدي ضحكًا مبالغًا، أو أن تفتح فمها بشدة كي لا تزيل تناسق الألوان وملمس البودرة البيضاء.

كيدايرا لا باس (كيف الحال، بخير)؟

سألت القادمة الجديدة نعيمة، لكن هذه الأخيرة لم تزد أن ألقت بابتسامة متصنعة.. كانت حليمة قد عزمت أن تطوي عقارب الزمن بتجاذب أطراف الحديث مع الجالسة معها.. ولا مناص من ذلك، فهما وحدهما بهذه القاعة الضخمة، ولا يشمل حيز ثرثرتها أولئك "الجُوق" (الأوركسترا) الذين مازالوا يملئون اللاقط بلعابهم المقزز.

سبحان الله، كأن القدر قد جمعنا هنا.. فأنت تشبهين أختي طبق الأصل.

وجَّهت نعيمة نظرها نحو المتحدثة قائلة في تعجب مُكَذِّب:

سبحان الله!

كانت جملة نعيمة تحمل ثقلًا استهزائيًّا.. لكن حليمة قد نشبت فخها ووقعت نعيمة به!.. حركت القادمة الجديدة كرسيها حتى قاربت نعيمة، ثم همست لها أنها لا تكذب فهي تشبه أختها. قالت لها إنها ماتت منذ مدة وتركت خلفها بنتًا يتيمة اسمها لبنى، وستسعد كثيرًا إن رأتها، فكأنما بُعثت أمها من تحت الثرى مرة أخرى.

لكن البنت المسكينة مازالت تعيش على شبح حدث أثر فيها كثيرًا:

مَاشِي كانت غا تْقْتْل هي وأمها؟!.. نعم لقد كادتا أن تفارقا الحياة!

لكن أختي المسكينة ماتت بعد تلك الحادثة بمدة يسيرة نظرًا لارتفاع حاد للسكر بالدم.. صبرت أثناء الحادثة لكنها ما استطاعت تجنب تبعاتها.

بدأت نعيمة تَلين لسماع تلك الحادثة.. حتى أن حليمة سكتت برهة لتنمّي لدى نعيمة غريزة الفضول التي تتميز بها معظم النساء.

بعد ثوان معدودة، سألت نعيمة:

وماذا وقع لهما؟.. المسكينتان.

بعدا (أولًا).. دعيني أقدم نفسي.. أنا حليمة.

وأنا نعيمة.. مْشَرْفين.

بعد هذا التعارف المقتضب بدأت حليمة في سرد قصتها العجيبة، وهذا ما جادت به ذاكرتها:

في يوم من الأيام، أخبرت لبنى أمها (التي هي أختي) أن أحد الشباب قد حدثها بإعجابه بها.. وأنه ما برح الجامعة التي تدرس بها حتى وافقت أن يأتي لخطبتها، وهو الآن ينتظر الجواب وتحديد الموعد.. لم تنبس أختي ببنت شفة، كانت تفكر في تكليل الشتائم والسب للفتاة خاصة أنها تنتظرها أن تعمل لكي ترتاح هي بعد عناء سنين من العمل بمعامل الخياطة وتفصيل الأثواب، التي أخذت منها زهرة شبابها وفرضت عليها أن تتزوج أباها "كي يتعاونوا على الزمان".

لكن لبنى فطنت لجواب أمها مسبقًا، فما كادت أختي أن تفتح فمها حتى سارعت لبنى بإخبارها أنه ميسور الحال، عنده سيارة فخمة من نوع مرسيدس، كما أنه أخبرها أن لديه شركة ضخمة لبيع السيارات الفاخرة المستعملة تركها له أبوه، خاصة أنه كان ابنًا وحيدًا له، وأن أمه قد توفيت منذ مدة ولا أعمام له.. فكانت الشركة له.

طارت الأم فرحًا، وغردت بجميع اللغات مُعربةً عن رضاها على ابنتها المرضية.. فأصبغت عليها مكاييل الرضى والدعاء بتنقية الطريق من الأشواك.. وفعلًا، جاء الشاب لبيت لبنى، استقبله أبوها واتفقا بسرعة على كتب الصداق، وهتك بياض العقد بسواد الزواج من ابنته.

كان شابًّا وسيمًا شيئًا ما.. لكن سلاسل الذهب التي وشحت عنقه وخواتيم التبر الذي دملجت أصابعه جعلت منه طوم كروز أو براد بيت في عز شبابهما.. بل ربما شاروخان قادم من الهند على فيل ضخمة يحمل هدايا التبر الخالص والفضة النقية البيضاء، خاصة أن بشرته كانت تميل إلى سواد ملفوف بزرقة في الوجنتين.

جاء الموعد.. وعقدا صداقهما بمكتب أحد العدولات الذائعين الصيت.

بعد ذلك، لم يمسك الشاب يديه عن بيت لبنى، فأغدق الهدايا على كل أفراد البيت، حتى أضحية العيد قد اشتراها لهم، كبشين ضخمين أقرنين فاق ثمنُهما معًا الخمسة عشر ألف درهمًا!

المهم يا حبيبتي..

حددوا يوم العرس الذي سيقام بفندق ضخم.. خمسة نجوم.. كما وقعوا عقودًا مع كبار المطربين والمغنين، بين شعبي وأندلسي وملحون وراي وغيرها.

قرروا أن تترك ليلة العرس حكاية لا تنساها المدينة دهرًا.

واقترب الموعد شيئًا فشيئًا، وفي يوم حدَّثَ كريم (زوج لبنى) أختي أن له منزلًا آخر بجوار غابة بوسكورة التي ترمي بظلالها بين تخوم مدينة الدار البيضاء.. أخذ يحدثها عن المنزل الخشبي الذي حاكى عمرانه أبنية أوروبا الخشبية التي تظهر بالتلفاز، إلى أن طلبت منه أختي أن تزوره هي وابنتها.

طلب كريم منها أن تجلب الأب أيضًا، لكنها رفضت.

كان يعلم أنها سترفض.

ثم ضربوا موعدًا.. الغد، أو ليس الغد بقريب!

جابت السيارة التي كانت تحملهم (أختي ولبنى وكريم، وصاحبه المقرب، أنور الذي كان يجلس بجانبه) الطريق السيار، لتعرج بعد قليل إلى المخرج المخصص لغابة بوسكورة.. سارت السيارة قليلًا بالطريق المعبَّد لتلتف وسط الأشجار الكثيفة وتتوارى خلف الدوحات

السامقة.. بدأت أختي تفقد بعض راحتها وتوجس خيفة في نفسها، فقد أضحت تستوحش الظلال العديدة للأشجار التي ما فتئت تبثُّ الرعب بالقلوب.

أحس كريم بدبيب الخوف إلى صدر الأم، وطمأنها ولبنى أن المنزل الخشبي قريب، وقد اختار أن يكون وسط الغابة ببقعة ورثها عن أبيه كان قد أخذها كإكرامية من السلطات.

بعد لحظة يسيرة، توقفت السيارة وترجَّل كريم وأنور لتتبعهما المرأتان.. رأت أختي - آنذاك - بيتًا خشبيًّا يتوسط الأشجار كتمثال طوطم تتراقص حوله ذكور الهنود الحمر.

ولجوا البيت الذي لم يشمل إلا طابقًا سفليًّا واحدًا، يضم غرفًا مقفولة وبهوًا قد أُفْرش بعناية، ويحوي مطبخًا مفتوحًا على النسق الغربي وقد ضم مجموعة من الأواني.

اتجه كريم إلى الثلاجة، ووقف بجانبها مخبرًا أختي أنه سيذهب هو وصديقه لاستقبال صديق ثالث وزوجه بمنعرج الطريق السيار إذ أنهم لا يدرون مكان منزلهم هذا.

أخبرها أنه يريد الاحتفال بعقد قرانه مع لبنى مع أعز أصدقائه، ثم أشار لها بعد فتح الثلاجة لتشكيلات الفواكه واللحوم، هامسًا لها أنه يعشق اللحم بالبرقوق الذي أكله سابقًا عندهم بالبيت.. ثم خرج هو وصديقه.

بدأت أختي تحضر ذاك المرق الشهي، فوضعت كمية من اللحم بالقدر، وسألت لبنى أن تهتم بوضع التوابل والماء ومواصلة الطهي، فهي بدأت تحس ببعض الدوار برأسها وستقصد أحد الأبواب المغلقة، لعلها تجد سريرًا تُريح فوقه مفاصلها.

اتجهت اللأم للغرفة الأولى التي وجدتها موصدة..

الثانية موصدة...

والأخيرة.. كذلك!

بدأ فأر الحيرة والشك ينخُر بأسنانه القارضة عصبونات فكرها.. أخذت الريبة تكبر وتكبر، وفضول المرأة الفطري ينشب أنيابه كي يفترس الغموض الذي تلفه تلك الغرف.. تذكرت هوايتها الدفينة في فتح الأبواب الموصدة، وفعلًا وجدت مشبكًا حديديًّا دقيقًا بحقيبتها الصغيرة المخصصة للنقود.. عادة نساء المغرب حمْل كل الدقائق الحديدية، نقود ومشابك ومسامير دقيقة وغيرها، بحقيبتهن الصغيرة التي غالبًا ما تكون سوداء أو فستقية.

عقفت رأس المشبك الأسود، ثم أدخلته بقفل إحدى الغرف، بعد عدة دورات غير كاملة بعَكْس وباتجاه عقارب الساعة، سمعت طقطقة فتح الباب..

ثم صرير مزعج،

فالظلام..

تحسست الجدار الداخلي للغرفة، ثم أدارت المفتاح الكهربائي..

وهنا كانت الصاعقة!..

كانت أكوام الأكياس البلاستيكية مصفوفة بعناية.. وتلك المادة البيضاء المشعة تظهر جليَّة من خلف المادة البلاستيكية، تبادر لذهنها أول ما تبادر أنها مخدرات.. دبَّ الهلع بفؤادها، وسرت رعشة خوف بين سلاماها خاصة بعد رؤية تلك المادة السوداء المصفوفة كسبائك بمحاذاة الجدار الجانبي، كانت تراها بالأخبار عند ذكر القبض على أحد مهربيها.. إنها حشيش مخدر.

خرجت بسرعة، وأقفلت الباب خلفها.. اتجهت بعيونها نحو لبنى المنخرطة بتحضير الأكل وهي تتغنى بكلمات أغنية بارد وسخون لمحمد الحياني، ثم قررت بسرعة ألا تخبر ابنتها بأي شيء.

عرجت إلى الباب الثاني..

فتحته..

أشعلت الأنوار..

لا شيء.. غرفة خالية على عروشها.

أقفلت الباب ثم توجهت إلى الباب الآخر الذي كان أضخم قليلًا من سابقيه.. بل تعرف أن سماكته عريضة عند رؤيته لأول وهلة. ظنت أنه سيستعصى عليها فتحه، لكنه لانَ وانفتح لتهب عليها ريح عطنة أزكمت أنفها..

تحسست الجدار، ثم أشعلت النور.

جثث متناثرة هنا وهناك..

جذوع لنساء عاريات قد بُقرت بطونهن الخاوية إلا من أمعاء مختلطة بدماء مُلبدة.. وبعضها مُعلق كأضحية العيد وقد وُضعت أحشاؤها تحتها.. لكن أعضاء الجثث الحيوية، من قلب وكبد وكلي وغيرها، كانت مفقودة.

علمت أختي آنذاك أنها أمام عصابة للاتجار بالمخدرات والأعضاء الحيوية لبني البشر.. وهي وابنتها الضحيتان القادمتان.. خاصة أنها وجدت الباب الرئيسي موصدًا هو الآخر.

اتجهت إلى المطبخ وهي تتجافى بين الخوف والتفكير في طريقة تهرب بها، أو على الأقل تنجّي ابنتها من فكي هاته العصابة.

كانت قد جلبت معها كيسًا من السم الأبيض الذي وضعته بالشاي الذي حضرته.. تظاهرت ألا شيء قد حصل، بل قد أقنعت ابنتها

سابقًا أنها لم تسطع النوم والراحة فقررت أن تُحضر الشاي المغربي للقادمين، عساهم يطوون دقائق الزمن قبل تحضير اللحم بالبرقوق.

دخل كريم وأنور وشخصان آخران.. قدمهما للأم والبنت على أنهما عريسان حديثان من أصدقاء طفولته، ويريدون إقامة احتفال صغير على شرف زواجه بلبنى.. اتجه كريم نحو زوجته بينما جلس الآخرون بالبهو الضخم، لكن الأم وضعت بسرعة صينية الشاي - قائلة:

ولدي كريم تعال اشرب الشاي من يد حماتك العزيزة، وبعد قليل سنضع طبق اللحم بالبرقوق.

ابتسم كريم، وأخذ كأسًا ثم دفع الشاي إلى فمه مرة واحدة.. شاطَرَه الحاضرون الفعل، لكن أختي لم تفعل بل أعادت الكأس للصينية، ثم قصدت لبنى وهي تجري في هلع..

ضرب فكر كريم أخماسًا بأسداس، فَطِنِ أن الشاي به شيء ما.

حاول إمساكها لكن يده لم تعد بجنبيه بل سافرتا إلى عالم آخر..

ما عاد يحس بشيء، ثم الظلام اجتاح رؤياه ليقع على الأرض.

ثم خرجتا تجريان وسط الغابة إلى أن وصلتا للطريق الرئيسي، واستقلَّتا شاحنة لتنجوا من العصابة.

....

كانت نعيمة تُنصت وقد خالج قلبها حزن وخوف، أيعقل أن يقوم شخص بخطة كهذه لقتل شخص من أجل أعضائه؟.. وكيف له ذاك، وقد كان يكفيه أن يستدرج باغية أو أنثى مستهترة؟

كان المغني الشعبي قد بدأ في نباحه الغنائي الذي أيقظها من استفساراتها..

نظرتْ يمنة ويسرة..

لم تجد المرأة بجانبها..

جحظت عيناها هلعًا.

أدارت عيناها بين الحضور، لتجدها وقد حزَّمت خصرها وأخذت ترقص وسط كوكبة من الناس.

الوَلْدْ

الوَلْدْ..

وساكنات الكلمة لا تحذف رغم التقائها..

لأنه ببساطة..

فيلم هندي..

طالما أطلقنا ذاك المصطلح على بطل الأفلام الهندية، خاصة الممثل شاروخان.. كان الأربعاء بعد الزوال مميزًا، فعند ذاك الموعد كنا نتحسس الفيلم الهندي الجديد الذي سيعتلي ملصقه سينما المَدَنِيَّة.

كانت السينما العتيقة تجود على مراهقي مقاطعة سباتة ومحيطها بفيلمين بثمن زهيد لا يتعدى الخمسة دراهم، فيلمان موسومان بكثير من التناقضات، فالأول أمريكي من هوليوود..

أما الثاني فمن أقصى الشرق..

من الهند..

من بوليوود.

وفي ابتعاد مخرج الهاء بهوليوود عن الباء ببليوود معنى في التفاوت الصارخ بين الدارين.

كان الفيلم الأول لا يتعدى الساعة والنصف، أما الثاني فتلك الساعة والنصف لا تكفي حتى لأغانيه التي تتخلل أحداثه..

بل أحداث تتخلل الأغاني..

كفيديو كليب ضخم..

ذاك ما كان يعرض آنذاك.

أذكر ذاك الفيلم الهندي الذي شد انتباهنا ودفعنا لولوج المدنية، لا لشيء إلا لوجود الوْلْدْ ببطولته، وإذا التقت الساكنات بكلمة واحدة فهناك شاروخان حيث المستحيل يصبح سهلًا. كان يقفز من أعالي البنايات، يجري ليسبق المواصلات، يغطس فيتنفس كالحيتان وينساب كالغواصات.. كان يفعل كل شيء، كل شيء، ونحن فارغو الأفواه كمَن يرى مخلصه من هذه الدنيا المنحطة.

ربما كنا نرى فيه ذاك الحلم الذي يعتري كل مراهق.. فهو تلين بيده أعتى الفاتنات، ويتقن الأسلحة وفنون القتال والغناء، وحول هذا الأخير قصة أخرى.. فقد كنا، عَتَهًا، نظن أن شاروخان هو من يغني، وأن ذاك هو صوته، وحنجرته هي التي تخرج ذاك الصوت الحالم.

كانت تكفيه حركة أصابع خفيفة ليَحْبك موسيقاه التي تخرج من العدم، بل يَنْبُت الراقصون والراقصات من بين ثناياه وأنفاسه.. نعم ذاك الصوت الذي تتنزل قطراته زخَّاتٍ زخات، فينبت منه كل شيء...

الموسيقى..

فرقة الراقصين..

مناظر الجبال والبحار والصحاري الخلابة..

بل إنه يدفع مدير الجامعة والوزير إلى الرقص والغناء!

كنا نحاول تقليد قسماته..

عندما يغضب ويفرح، وحين يمشي ويجلس، بل نحاول أن نُذبل أعيننا لتغدو رومانسية الكلام كعينيه..

والممثلات الهنديات قصة أخرى.. لن أسرد هنا شيئًا منها غير نتيجتها..

كان مُنَانَا وحُلْمَنَا ومنتهى مُرَادنا أن نتزوج بهندية..

تخيل بهندية!

أتذكر بعض رواد السينما الشعبي من السكارى وقد أمسكوا بزجاجاتهم الخضراء يتراقصون أمام الشاشة الضخمة لتنهال عليهم أحط العبارات، في لعنهم ولعن ذويهم، ولكنهم لا يتنحون حتى يسقطوا من جرّاء ركلة أو ضربة من أحدهم..

ما علاقة كل هذا بقصتنا؟!..

تريَّث واستمع بتمَعُن.

كان بطلنا يريد أن يعيش في ثوب الوَلْد لكن يلزمه ممثلة تتقن دورها، ممثلة فقط.. ممثلة لطيفة وديعة تشاركه رومانسيته وتحلم بالعيش وسط فيلم هندي بحياتها الواقعية، لكن لا تحرك ساكنًا إن هو سَئِم أو ملَّ العلاقة.

وجدها، واختارها..

الشابة الأكثر رقة وحنانًا بِقِسْمِه، فتاة كانت تهيم بأفلام بوليوود، وتحلم بحب عذري تعيش قسماته، وإن هي ظُلِمت أو طُعِنَت بِمُدى اللسان والمشاعر بذاك الجنان، لا تفرغ حنقها بين أقرانها، بل تكتفي بالبكاء بعيدًا عن كل إنسان.

كيف أخبرها، وكيف أوصل مشاعره الفياضة المهترئة؟

كانت وسيلته الرسائل المكتوبة المنمقة بفقرات روايات عبير الرخيصة، وكلمات حفظتها قريحته من ترجمات الأغاني الهندية.

كان قد دسَّ إحداها بين دفتي رواية استعارها منها، ليس ليقرأها، بل ليُحيك لعبته الدنيئة..

وقعت بشباكه وبين حباله، بثَّ لها أشواقه التي يكابد آلامها كلما اختفى وجهها عنه، وآهاته التي تعتري فؤاده كلما انطلق جرس الخروج من الثانوية آذنًا بفقدان ضحكتها ونظرتها الحالمة. أخبرها

أنه يحب نبس شفاها، ويعشق حنانها الوقّاد. وأوضح أن وقع قدميها يُشعل بجوفه نارَ الولَهِ التي لا تخمد، وينير حواسه من كل عيٍّ وتبَلُّد، فحبه لها سرمدي، عاش قرونًا تليدة أبدية، مزيج من خرافات الجدات، وحكايات القصاص، وجُعْل المنجمين والكاهنات..

صدقته، وعاشت حلمها..

ربما أحبَّته، فحب عذري ساغ كلماته حروفًا بأوراق عذراء مثل قلبها، ستفض بكارته بنار الهوى التي كانت تداري شمعتها.

أسرَّ لي – فيما بعد – أنه هجرها، وأخبرها بأن علاقتهم لا مستقبل لها..

سألته.. أكلمها شفاهًا؟

فأجابني بالنفي، فشبقه النرجسي في عيش تجربة على حبر فقط، قد أُشْبِع..

... ثم:

هي ليست بنوعي المفضل.

ذاك ما ختم به الكلام، مُحِيلًا حروفه إلى موضوع آخر.. أما أنا فقد ضرب قلبي أخماسًا في أسداس حول فهم صديق حسبتُ أنه كتاب مفتوح أمامي.. غير أن الإنسان مهما حاولتَ فهمه، فجانبٌ موارَبٌ من نفسه المريضة يبقى رهينَ سجن، الله أعلم متى تفجره غرائزه.

وهي؟

ما كان خطبها؟

ذاك ما لم أعلمه.

لاقيتها كثيرًا، لكني لم أسألها؛

فذاك أمر نَبَت بين الأوراق وخَبَا بينها.

شبق عنكبوتي

تعرفتُ عليها بالعالم الافتراضي، وافترقنا بالعالم الافتراضي، فقد صيغت كلمات حكايتنا بين مفاتيح الحاسوب وأزرار الفأرة الإلكترونية.

كنتُ أعلق على منشور ذي طابع فكري لأحد الأصدقاء، لا أذكر ماذا قلتُ فقد تضاربت أفكاري منذ مدة، فما عدت أفقه ما كان قناعة لدي آنذاك.. لكن أتذكر أن المنشور كان حول الفلسفة الإشراقية التي لا أعلم شيئًا عنها آنذاك سوى القليل القليل، وأن مؤسسها هو السهروردي!.

من هو السهروردي هذا؟.

لا أعلم، فقد حفظت اسمه من كثرة تداوله.

كان تعليقًا عاديًّا، لكنه لم يكن كذلك عندها.. قالت لي فيما بعد إن تعليقي ذاك دلَّ على حسن بديهتي وتمرسي الفلسفي، رغم ألا علاقة لي بالفلسفة الإشراقية وتجلياتها. أرسلت لي طلب صداقة فوافقت، فاسمها الذي كان يدندن حول الفلسفة ودواليبها جذبني، ولم يبث بسريرتي أي شك ولا ريبة في علاقة محتملة.

لم تحدثني ولم تتواصل معي لمدة أسبوع، لكني وبعد نهوضي بيوم أجازتي وجدتها قد أرسلت بضع كلمات على الخاص.

كُنت قد نِمت مُتأخرًا فتفلتت صلاة الصبح مني، وما تفتحت عيناي إلا مع العاشرة.

كان أول ما فعلت هو فتح حسابي على الفيسبوك، لأجدها وقد أُعجِبَتْ بما نشرتُ كعادتها دون أي تعليق، لكنني هذه المرة وجدتُ رسالة لها على الخاص..

حَوَت كلمات مقتضبة، لا تعدو جملة واحدة حول سؤالها عن إمكانية الحديث معي إن وافقت. طبعًا، أرسلت لها موافقتي مصحوبًا بأيقونة مبتسمة. ترجلتُ من سريري الذي غاص به جسمي حتى كدتُ أن ألمس الأرض من فرط تهالكه، وجررت قدمي محاولًا الوصول للحمام قصد غسل وجهي، وأن أتوضأ لكي أقضي ركعتيَّ الفائتتين.

وما كدت أرجع لغرفتي كي أفتح شبابيكها حتى فاجأني صوت الرسائل الخاصة المميز. بعد فتحها وتهوية العطن الذي بات ينشر رائحة النوم بين ثنايا الغرفة، فتحتُ الرسالة هي الأخرى، لأجدها تقترح عليَّ أن ألجَ مجموعتها التي تُعنى بالفلسفة الإشراقية.

وافقت، وقلت لها على الرحب والسعة، لكنها أجابتني بنفس اللحظة أنها زجت بي كمسؤول للمجموعة.

عارضتُ بشدة، وعللت رفضي بأن فقهي قاصر، وأني لم أطلب الفلسفة قط غير بضع فقرات قرأتها عندما كنت بالجامعة، أو خالطتْ حروفها مُقلتيَّ هنا أو هناك.

أخبرتني أنها معجبة بما أنشر.

وأن ما تنقره أناملي على شاشة الفيسبوك يقارع طلبة الفلسفة المُجيدين التي هي واحدة منهم.. فهي واحدة من طلاب الفلسفة بالجامعة، وحاصلة على درجة ليسانس، وتُحضر الآن للإجازة.

وافقت على مضض، لكني حصرت مهامي بالأمور التنظيمية فقط.

غير أن ذاك الحوار لم ينته.. ولم يكْشَح سيل كلماته التي ما فتئت تحيك أولى قسمات التواصل حتى أحالته لعلاقة. والصدق أنني اشتهيت ذلك، لكنني قَنَّعْتُه خجلًا من نفسي بقناع الحديث حول الفكر والفلسفة والعقل. وكان ذاك فعلًا أول الأمر.

كانت تناقشني حول تعليقاتي ومنشوراتي، كنت أدافع عن أفكاري بشراسة ولا زاد لي سوى نزر قليل من منطقٍ دَرَسته بأولى سنواتي الجامعية، قبل أن أختار إحدى المدارس الخاصة التي تمنح دبلوم إجازة مهنية (باك + ثلاث سنوات)، وأُعين بإحدى المكاتب الوطنية ذات الطابع الإنتاجي.

والأعجب أنني كنت أقنعها، رغم خُلُو حجاجي من أي مأثور لعرابي الفلسفة أو حديث أو قول فيلسوف معاصر أو حتى فكرة أديب.. كانت توافقني وتُقرُّ رأيي، بل وتُشيد بطريقتي في تركيب استدلالاتي المنطقية، وتنبهر لوعيي وعيني الثاقبة المدركة لخبايا المعاني ولطائفها.

ثم أُصِبتُ بشيء من الأبهة والكبرياء..

حتى بتُّ أنشر صوري وأنا أمسك بكتب لا أفقه فيها شيئًا، بل وبمؤلفات لا أعرف حتى معنى عنوانها ولا ميدان طرحها الفكري.

وهي لا تُفوّت شيئًا بحائط النشر إلا وأعجبت به، بل أضحت تبثُّ تعليقاتها المشيدة بي وبعلو كعبي بالفكر ونضارة فهمي الوقاد!

والحق، كما قلت، أن الأمر أعجبني، ودبَّ بين رفوف فؤادي كتبًا جديدة لأحاسيس لم أفقهها سابقًا.. فما عرفت فتاة قبل!.

سَأَلْتَني مستنكرة، كيف لي وأنا شاب أقترب من الثلاثين ألا تكون لي علاقات سابقة؟!

ذاك ما كنت عليه، شخص يرى مصادقة فتاة أو الخروج معها كمشروع اجتماعي فاشل.. وليس للحظة طاقة على سرد رؤيتي ولا طرح قناعتي، فلنُكمل ما بدأناه!

وفي مدة شهر، كانت علاقتنا قد ارتبطت وأوثقت حبالها.. بالنسبة لي لم يكن حبًّا ولا إعجابًا، بل غرورًا في عيش علاقة عبر الأثير.

وبيوم ممطر قارس، كنت أراسلها عبر الخاص بالفيسبوك، فقد كانت الكلمات هي وسيلة بسط علاقتنا القائمة على أحاديث حول الفلسفة الإشراقية وعلاقة السهروردي بالناصر صلاح الدين الأيوبي، ثم كلام مسترسل حول عملي، وحياتي وحياتها، وما تعيشه من أحداث يومية.

وبعد أخذ وردّ، كنت أُخلله ببضع رشفات من شاي أحمر رديء أصلع من عمامته البيضاء، بادرتني بطلب غريب.. أخبرتني أن شركة الاتصالات الهاتفية قد أهدتها خمسمائة درهم كرصيد، وهي تريد أن تُشاطره معي. أخبرتها أن ذاك غير ممكن، لكنها أكدت لي أن الشركة قد أنتجت خدمة تمكنها من ذلك.. فأعطيتها رقمي!

كنت أصدق أي شيء، وذاك ما أخبرتني به سالفًا.. قالت لي، عندما اعترضتُ على حديثها حول سوء نية أحد أعضاء المجموعة، إنني نِيَّة وأصدق أي أحد.

المهم..

بدأت أضغط أزرار الأرقام مُشكلًا رقم هاتفي..

لا تَقل لي إنها أرادت رقمي لذاته، وأن لا غرض لها إلا مشاطرتي للهدية!..

فذاك ظاهر، بل كان ظاهرًا إلا لي!

وما أن ضغطت العدد 1 الذي ينتهي به رقمي، حتى رن هاتفي.. لن أقسم لك أنني ما فطنت أنها هي.. فلن تُصدقني.. وفعلًا، كان الصوت الذي يتحدث لأنثى تتكلم في غنج:

ألو من معي؟

سكينة.

من سُكينة؟!.. معذرة فلا أعلم أحدًا بهذا الاسم.

ضحكت في دلال أرعش أعصابي واقشعر منه جلدي العذري، ثم أجابت:

قلت لك إنك تُصدق أي أحد.. لقد أعطيتني رقمك توًّا.

دارت بي الأرض وفقدت جاذبيتها تحت قدمي، فحُمِلتُ إلى أفلاك لم أطلها.. بل بدأت لعنة الفراعنة تبعث بجعران العرق كي يدب بجسمي، ويرسل سحره الذي ألجم لساني فما عُدت أُبين ولا يثبت القلب ويستكين.. كان الجو قارسًا بالخارج، لكنه بغرفتي قد قارب درجة الغليان.

لم أتكلم بعد ذلك سوى بنعم.. حاضر.. نعم.

فقد فقدتُ لغتي وتَشَتَّتَتْ الحروف بين دروب التيه والنكران..

إنك تستنكر مرة أخر، تسأل لماذا؟!

لقد قلت لك. كان قلبي عذريًّا مازال يحافظ على بكارته التي ما استطاعت أن تهتكها أنثى، ولا أن تنهل من دمائها الصافية.

بعد ذلك، أصبحنا نتحدث بالفيسبوك كتابيًّا، ثم نتكلم شفاهًا، كانت دائمًا هي المتصلة، فقد أسرت لي أنها أحبت صوتي الرخيم وتريد أن تسمعه كل ليلة.. ونختم ليلتنا بالرسائل النصية الهاتفية التقليدية.

لا تسألني مرة أخرى أكنت أحبها؟.. فأنا لم أعرف ما هو الحب!.. ربما هي أحبتني أو أعجبت بي كما تصورت!.. أما بالنسبة لي فقد كنت أعيش مراهقة افتقدتها.. لكني كنت أخاف أن يتوسع الأمر لأكثر من ذلك.

وفي يوم سألتني عن ماهية الفتاة التي أريد أن أتزوجها وعن مواصفاتها، وهنا كنتُ فطنًا فقد بدأتُ أستوعب أنها تنسج عباءتها حولي، وتريد أن تجرّني جرًّا إلى خندقها المنشود.

تُريدني زوجًا لا محالة!

نعم.. نعم.. أعرف أنك فطنت لذلك منذ أول وهلة.. لكنني لم أدرِ بذلك، وما كُنت أُشبع إلا شبقًا مكبوتًا بداخلي..

أن أستمتع بفتاة عبر الأثير!

أخبرتها عن أوصاف مناقضة لها، ولِما هي عليه، وحاولت أن أضخم من رؤيتي لشروطي بفتاة أحلامي.. ومع آخر جملة لي، قطعتِ الاتصال الشبكي بعدما حاولتْ إقناعي بالإعراض عن تصوراتي العليلة والرجعية للمرأة.

ولم تُحدثني تلك الليلة.. لا برسائل الهاتف ولا باتصال مباشر.

استغللتُ الأمر فبدأت في وضع منشورات حول المرأة والزوجة تزكي وجهة نظري، فما زادها ذاك إلا إعراضًا وابتعادًا. بعد يومين، بعثتْ لي على الخاص قائلة.. إنني لا أفهم شيئًا وإني قاصر الإدراك.. أجبتها بالاستنكار وعدم معرفتي لقصدها.

نعم.. أعرف أنك فهمت قصدها.. وأنا أيضًا فهمته، لكنني لم أرد إجابتها وأظهرت الجهل.

باليوم الثالث من الواقعة، كنت أحادث أحد مسئولي المجموعة..

أخبرني أنه طرد سُكَينة..

تعجبت أنه يعرف اسمها الحقيقي.. أسر لي أنها كانت تراسله

على الخاص وعندما علمتْ أنه أصغر منها سنًّا أزاحت الاهتمام عنه، وأضحت تحادث المسئول الرابع أبو تراب، وهي الآن تحاول استدراجه.

سألته كيف عرف؟.. فقال لي:

لديَّ حسابان.. هذا وحساب باسم"أبو تراب".

الزقاق

حي شعبي فقير، مليء بالأزقة والدروب، نتن عَطن، قد ملأت جنباتِه أصنافٌ من البشر وأنواع من بني آدم.. كان ذلك الحي، الضخم، القصير.. يسَمّوه بـ: حياة.

كنت بأول الأمر، وأنا أنسج الكلمات أثوابًا لجُمل لا تُبين، أتحسس طريقي بأول زُقاق ولجْته، كنتُ أحسب أن الدُنيا كلها تختزل به، كما أنني لم أكن أُعير اهتمامًا لتلك القاذورات المتناثرة حولي، ولا لكمية النجيع الممتدة على جدرانه وقسمات بعض أهله، بل كان جنة بالنسبة لي، جنة نضرة، كانت البنايات تقف على جنبات الزقاق متهالكة بالية.. ترنو إلى معانقة الأطلال، لكني كنت أحبها، أحب اللعب بها ومداعبة أدراجها.. وأنا أعدو، وأعدو.. أسابق الريح إذ تعوي، لكني ما فقهتُ آنذاك العواء.

أطفال الحي.. كانت الابتسامة لا تفارق أفواههم، لم يكن يدنسها شيء، حتى العرق المتساقط.. زخّاتٌ من جميع أبدانهم.. لا يحمل عطنًا ولا خبثًا، بل كان كترياق نشُمُّه فيفُرز الأدرينالين، مُنشطًا أعضاءنا الحيوية كي نلعب أكثر. بهذا الوقت، لم تحمل ذاكرتي قصصًا تُتلى،

ولا روايات تُروى إلا ضحكات طفولة وبكاءً جميلًا لا يَنفطر القلب له، بل كان يُساعد رئتيَّ على النُمو بشكل قويم.

وفي يوم، وأنا سائرٌ أضحك وألعب، تلاقى الزقاقُ بآخر، فاستحال شارعًا ضيقًا ذا اتجاهين، وبدأ بعض رجال الدرب الجُدُد يكشفون بعض ستر حياتي، لكنني لم أدع لعبي وضحكي، بل تعلقت ببعضهم وخططت بفؤادي إعجابي بهم، عَلَّموني أشياء عديدة ومعاني فريدة. كانت لبنات في بعث أفكار جديدة بكينونتي، تلك الأفكار لم أفقهها آنذاك، لكنها انتفضت من بين نقع النسيان لتظهر الآن.

المهم، آنذاك.. وأنا ألعب بين دفوف الكتب تارة وبين أحجار الزقاق تارة أخرى، إذ بغم شديد قد اجتاحني وعصف بقلبي ومهجتي. كنت كباقي أطفال ذاك الحي أسير بعشوائية وعتَهٍ طفولي، لكن جسمي قد نضح سائلًا غريبًا، فارتاع القلب من وقع الخروج، ثم تحسست إبطي وعانتي فوجدت الشعر قد بدأ في نشر رغباته ببيداء عهِدْتها قاحلة؛ فأخفيتُ أمري الذي سرعان ما افتضح عندما بدأ شارب ذميم يخط قسماته فوق شفتي العُليا، إذ ذاك همس لي أحد المشاة بالزقاق: إن صوم رمضان قد وجَب، وأضحيت بالغًا. حسبت آنذاك أن البلوغ والحُلم لا يعدو إلا أن يكون فصلًا ما بين الصوم وعدمه!

كانت أزقة الحي الأخرى بدأت في التقاطع مع طريقي فازدادت حيرتي، كما ازدادت ريبتي، كل زقاق كان يسم قلبي. فهناك وعند ملتقى الدروب، كنت أقابل أشخاصًا لم أستطع نسيانهم.. أحببتُ بعضهم وكرهتُ الآخر. أعجبتُ بخَلْق قليل لكنني بغضت الكثيرَ.. الكثير، ثم ولجت دربًا عجيبًا غريبًا دفعني أن أحب الحي وأن أكرهه في آن واحد. شعور متضارب بدأ يجتاح طويتي فأضحيت أتمرد على كل شيء، كنت أقفز وأقفز؛ كي أرى ما وراء الجدران، أجري تارة.. وأقف تارة أخرى. أضحك وأبكي بلا سبب.. خُنت صيامي كثيرًا، وتركتُ عبادات كثيرة ومبادئ غُرست شتلاتها بالأزقة الماضية.

حتى الشخصان اللذان ظلَّا مرافقين لي عبر جميع المحطات والدروب أضحيت أرمي شرر الغضب نحوهما، فأراهما لا يفقهان شيئًا، خاصة بعدما أحسست أنهما يتدخّلان كثيرًا في خط سيري. الحقيقة أنهما كانا حنونيْن معي فقد وجدتهما بجانبي منذ رأيتُ مباني الزقاق الأول، لكن روحي أضحت ملتهبة مشتعلة لا تقبل أحدًا، وأنا على هذا الحال لم يتركاني بل تبعاني وجاهدَا ألفاظي البذيئة وتهكماتي المستمرة.

بعد بضع خطوات على الطريق، تقاطعت مع زقاق أعجب من سابقه، فقد ضم شخصًا رفرف له قلبي وما أردت أن أترك الملتقى وأن تُوقَف الخطى التي لا أقدر على التحكم بها.. تمكنت من إبطاء سيرورة

قدمي كي تلتحق بي نسرين، لكن ما إن تاخمت نفحات أريجها جيوب أنفي حتى تركتني لزقاق آخر. حزَّ ذاك في قلبي وأظلم دربي من الهم والأسى. أسرَّ لي أحد أصدقائي أنها اختارت دربًا مرموقًا وزقاقًا فريدًا لا يلجُهُ إلا الأذكياء.. كنتُ أرى نفسي ذكيًّا لكن للأسف لم أشارك نسرين نفس الذكاء.

ظلت خطواتي تحملني على الدرب الذي اخترته. لم يكن اختيارًا بملء إرادتي؛ فقد أحسست بيد تدفعني إلى هذا الدرب أو إلى آخر. وفجأة، خالج قلبي أن شيئًا تفلَّت مني وضاع من بين يدي.. تلفتُّ إلى جانبي الطريق، فلم أجدهما. لقد مات والداي، لقد اختطفهما أحد الأزقة الخفية التي لا تظهر لك إلا مرة بالعمر.. تظهر لك وحدك، فجأة، ثم تختفي فجأة.

ثم بعد خطوات متضاربة، ولجت دربًا قاتم اللون، قد زادت وساخته، وانتشر الذباب في أنحائه، كانت بناياته غير مستقيمة، بل تتمايل في انحناءات عجيبة، كنت أضحك ببعض الأحيان بلا سبب واضح، بل ببعض الأوقات أحس بشراييني تتضخم ونجيعي يلتهب؛ فأسرع في ذبح كتفي لإخراج الدم من سجن العروق، فأرتاح وأخمد ذاك اللهيب الذي ما فتئ يتراكم على هضاب البطالة.. وبعد وقوع ونهوض، شممت دربًا صرت فيه مُرَوجًا وبزناسا كما سماني أحدهم

بأول الزقاق. كانت النتانة قد أبدت سوأتها أكثر، وسرت الرذيلة بين قارعات الطريق، فأضحيت خفاشًا أسود لا أنشط إلا في الظلام.

بعد هذا، بدأ الزقاق يضيق شيئًا فشيئًا، لكنني لم أبالِ، فقد تركت همتي وبشريتي منذ زمن..

وبعد خطوات يسيرة، لكنها عليلة ذليلة، وجدتُ طريقًا أسود قد فُتح، وضبابًا مقيتًا قد لُفِظ نحوي.. شعور غريب اجتاحني. إحساس كبير بالألم قد عمَّ جميع جسدي؛ ليستحيل إلى برودة لعينة.. حاولت أن أرجع القهقرَى لكن دون جدوى، فقد كانت الظلال قد أمسكت بي وبدأت تلتهمني شيئًا فشيئًا، أردت أن أصيح فتثاقلت حبالي الصوتية، وأحسست بانكماشها المفاجئ.. كان جسدي يثقل ويثقل، لكن كياني أحس بليونة ومرونة ولطافة جميلة، فرغم الظلال التي نشرت أناملها بين ثنايا روحي؛ فقد نفضت جبالًا قد أثقلت كاهلي.

كانت تلك طريقًا جديدة..

طريقًا قد ظهرت من العدم فجأة، واختفت فجأة.

فهرس الشذرات